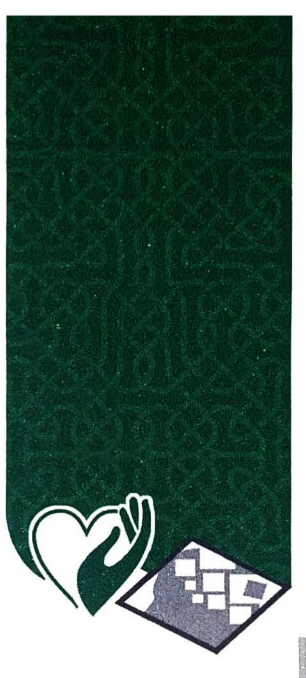
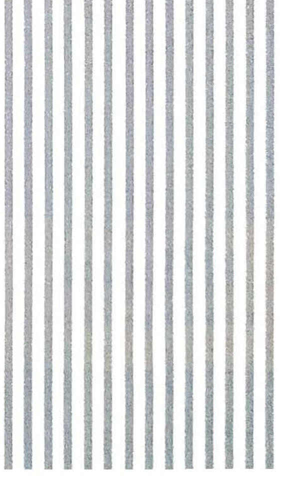
هذا الكتاب مدعمٌ بالشرح الصوتي لكل قاعدة باستخدام الباركود

قواعد في أعمال القلوب

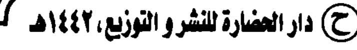
د. عقيل بن سالم الشمري
عضو هيئة التدريس بجامعة حفر الباطن





قواعد في أعمال القلوب

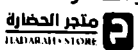
د. عقيل بن سالم الشمري
عضو هيئة التدريس بجامعة حفر الباطن


ح دار الحضارة للنشر و التوزيع، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشمري، عقيل بن سالم عقيل
قواعد في أعمال القلوب./ عقيل بن سالم عقيل الشمري - ط٢-
الرياض ١٤٤٢هـ
ص ٢٩٢؛ ١٤×٢٠سم
ردمك: ١-٧٠-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨
١- الوعظ والإرشاد أ- العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٤٢/٦٦٣٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٦٦٣٥
ردمك: ١-٧٠-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨

الطَّبعَةُ الثَّانِيَةُ
١٤٤٢هـ-٢٠٢١م



المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة: hadarah.store


تصميم و إخراج
0500594536
Mustafa-h123 @hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم



يتميز الكتاب بفكرة مبتكرة ، حيث دُعمت كل قاعدة بشرح صوتي لتوضيح القاعدة بشكلٍ مفصل ، فيمكنك استماع الشرح باستخدام الباركود بجانب كل قاعدة ، وذلك بفتح كاميرا الجوال على الباركود ، فينقلك للرابط الصوتي مباشرة .

إهداء

أهدي الكتاب......

إلـى والــدي الكريمـين.....

أكرمهما الكريـم بكرمــه....

آمــين....



قواعد في
أعمال القلوب

المقدمـــة

الحمد لله وصلى الله وسلم على رسول الله، وبعد:

فمن أصول أهل السنة والجماعة أن أصل الإيمان في القلب، وأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وأن أعمال الجوارح تبعٌ لما في القلب، وأن هناك علاقة وثيقة بين القلب وأعمال الجوارح، وقد أوجب الله أعمال القلوب في كل حال وفي كل وقت، ولا يسع أحدٌ الجهل بأصولها لتعلق الإيمان بها، وأهل الإسلام يتفاضلون بناء على مافي قلوبهم وما تفرع عنه على جوارحهم، والقلب هو محل نظر الله سبحانه وتعالى، ومن العلوم الشريفة علم أعمال القلوب، وهو فرعٌ من علم السلوك المتفرع عن علم الاعتقاد.

وحاجة أهل الإسلام اليوم إلى فقه علم القلوب أشد من أي علمٍ آخر، إذ كثير من أمراضنا إنما هي لوهنٍ في قلوبنا، وزاد الأمر سوءَ التصورُ الخاطئُ لكثير من الأعمال القلبية، فيظن البعض أنه حقَّق التوكل على الله بالصورة الشرعية،



فإذا تفَقَّه في أعمال القلوب أدرك أنه إنما حقَّقَ جزء من التوكل لا كل التوكل، أو أنه محقق للتوكل المفضول وليس الفاضل، هذا في التوكل الذي تمس الحاجة اليومية إليه؛ فكيف ببعض أعمال القلوب التي تحتاج إلى استدعاء لها من النصوص الشرعية، ومدارسةٍ، وتفقهٍ ليصل المؤمن إلى التصور الشرعي الصحيح الذي هو مناط العقيدة، زد على ذلك قلة المؤلفات في هذا الباب، ومن وفقه الله من أهل العلم وألف فنجده يكتفي ببعض الأعمال القلبية كالخوف والمحبة والتوكل والرجاء فيفوتنا بفوات الأعمال القلبية الأخرى خيرٌ كثير.

وأيضاً زاد الأمر صعوبةً أن السلف نادوا منذ القدم أن أول علم رُفع من هذه الأمة هو علم الخشوع، فكيف تريد تصوراً كاملاً صحيحاً صافياً في علم رُفع تطبيقه منذ قرون؟! وهذا كله في باب أعمال القلوب.

ولكي تدرك خطورة الأمر تخيَّل حال إنسان يريد أن يصلي ولم يتعلم صورة الصلاة الشرعية، وإن تعلَّم جزءً منها كان تعلمه خالٍ من الأدلة، وما تعلمه فإنما أخذ صورته

مما يراه من حال الناس حوله، فكيف إذا أكثر من حوله لا يأتِ بالصلاة الشرعية الكاملة التي تليق أن ترفع لله؟! ومع صلاته هذه كيف يأمن بعض النواقص أو المفسدات؟ فمثل هذا لا بد وأن يكون في صلاته نقصٌ ! وهذا حالنا مع كثير من أعمال القلب، فلم نأخذها كهيئة علم شرعي ندرس أدلته وكلام السلف فيه، ونحسن تصوره وفهمه، ثم نربي أنفسنا على ضوء ذلك، فحالنا كحال من أتى بأدنى قدر من الصلاة ويظن أنه على هدى كامل.

أما في باب أمراض القلوب فالأمر أشد وأصعب؛ إذ الأمراض خفية في أصلها، وتلبيس إبليس لها يزيدها خفاء، وإنما يفعل ذلك إبليس لعلمه بأن أعمال القلوب أخطر عليه من أعمال الجوارح، فهو يرضى من الإنسان بالجهاد في سبيل الله ويسهله على النفس بشرط فساد نية صاحبه؛ فيظن الجاهل أن عمله محل نظر الرب، وفاته أن نظر الرب للقلب.

وزاد الأمر خطورة في باب أمراض القلوب أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأعمال القلوب، فلن تعرف الرياء حتى تعلم الإخلاص، ولن تفهم الغرور حتى تفهم الرجاء.

ثم زاد الأمر أن الواقع المعاصر - في كثيرٍ من أموره - إنما يقع إفساد على القلوب بالمقام الأول، وقد نتعجب من مجتمع من المجتمعات كيف تقطع بينهم الرحم، أو ضعفت النوافل عندهم، وما فسد من أعمال القلوب أضعاف ذلك لكنها لا تُرى، ولكي تدرك ذلك انظر لأثر مشاهد المقاطع المرئية المباحة على أثر الرضا القلبي، وكيف أن مشاهد السفر والبيوت الفارهة والمال الوافر جعلت الإنسان يعترض على نعمة الله عليه؟! فكيف إذا تربى جيل الشباب والفتيات على ذلك؟! هذا أثره على الرضا، ولا بد أن يتبع ذلك إفساد لأعمالٍ قلبية مرتبطة بالرضا حيث أن الأعمال القلبية مرتبطٌ بعضها ببعض، وقد منع فقهاؤنا رحمهم الله اتخاذ الذهب والفضة زينة لما في ذلك من كسرٍ لقلوب الفقراء، فكيف بمن يفسد اليوم قلوب الناس؟!

فأحببت أن أسهم بجمع قواعد في فقه أعمال القلوب مساهمة مني في تقوية اعتقادي وتجديد إيماني وقد جمعته من:

١- كتاب: السلوك لابن تيمية، وهو المجلد العاشر من مجموع الفتاوى.

٢- **كتب ابن القيم، وأهمها**: الفوائد، ومدارج السالكين، والجواب الكافي، وإغاثة اللهفان.

٣- **رسالة** (أعمال القلوب حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة وعند مخالفيهم. د.سهل بن رفاع العتيبي) وهو أوسع ما في الموضوع فيما وقفت عليه، وأكثره تأصيلاً فجزاه الله خيراً.

وما جمعته من قواعد أخذت معناها من أهل العلم وقربته بألفاظي تقريباً للقراءة، ولا أنص على المرجع إلا حينما أرى الحاجة لذلك، وجعلته على أربعة أقسام:

الأول: قواعدُ عامة في فقه القلوب.

الثاني: قواعدُ في بعض أعمال القلوب.

الثالث: قواعدُ في بعض أمراض القلوب.

الرابع: كلماتٌ جامعةٌ في علم القلوب.

سائلاً الله أن يتقبله مني، وأن يثبت قلوبنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



فكرة الباركود الصوتي:

تميز الكتاب بفكرة جديدة في الكتاب الشرعي ، حيث دعمت كل قاعدة بشرح صوتي لتوضيحها بشكل مفصل ، فاجتمع في الكتاب القراءة والسماع ، وقد ذكرت في الشرح الصوتي : الأدلةَ ، ومنزعَ استدلالها ، وضربَ الأمثلة وغير ذلك مما يقتضيه الشرح ، ليعين القارئ على عمق الفهم ، واستيعاب القاعدة ، كما أن فكرة الباركود الصوتي تعين من لم يتمكن من القراءة على إدراك الفائدة المرجوة بإذن الله .

كتبـــــه/

د.عقيل بن سالم الشمري

مدخلٌ في القلبِ ومنزلتِهِ

يطلق القلب في اللغة على معنيين:

١- خالص الشيء، فخالص الشيء يُسمى قلباً، وعلى هذا الاعتبار فسُمي القلب قلباً لأنه أشرف الأعضاء وأخلصها، وبه يحدث التأثير على بقية الأعضاء.

٢- رد شيء من جهةٍ إلى جهةٍ كما يقال: قَلَبَ الشيء إذا حوله ظهراً لبطن، وعلى هذا الاعتبار سُمي القلب قلباً لكثرة تَقَلُّبِهِ، فلا يزال يتقلب من الهدى إلى الضلال، ومن الإيمان إلى الكفر، ومن الإخلاص إلى النفاق.

منزلة القلب:

اعتنت الشريعة الإسلامية بالقلوب وإصلاحها وإزالة أمراضها، ومن ذلك:

١- أنها بَيَّنت أن القلب أشرفُ ما في الإنسان كما أخرجه البخاري (٥٢) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».



فمتى صلح القلب صَلُحَ الجسد، ومتى فَسَد القلب فَسَد الجسد.

٢- بَيَّنت الشريعة أن الله لا ينظر إلا إلى القلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم). [رواه مسلم برقم(٣٣)].

وهذا مدعاةٌ إلى العناية بالقلب لأنه محلُ نظرِ الملك سبحانه وتعالى.

٣- أن القرآن الكريم نسب أشرفُ الأعمال للقلب وخُصَّه بها، فخَصَّه بوظيفة التعقُّل والتفقُّه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [حج: ٤٦].

وخصَّه بإنزال القرآن عليه: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

وخصَّه بنسِبَة الإيمان والهداية إليه: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

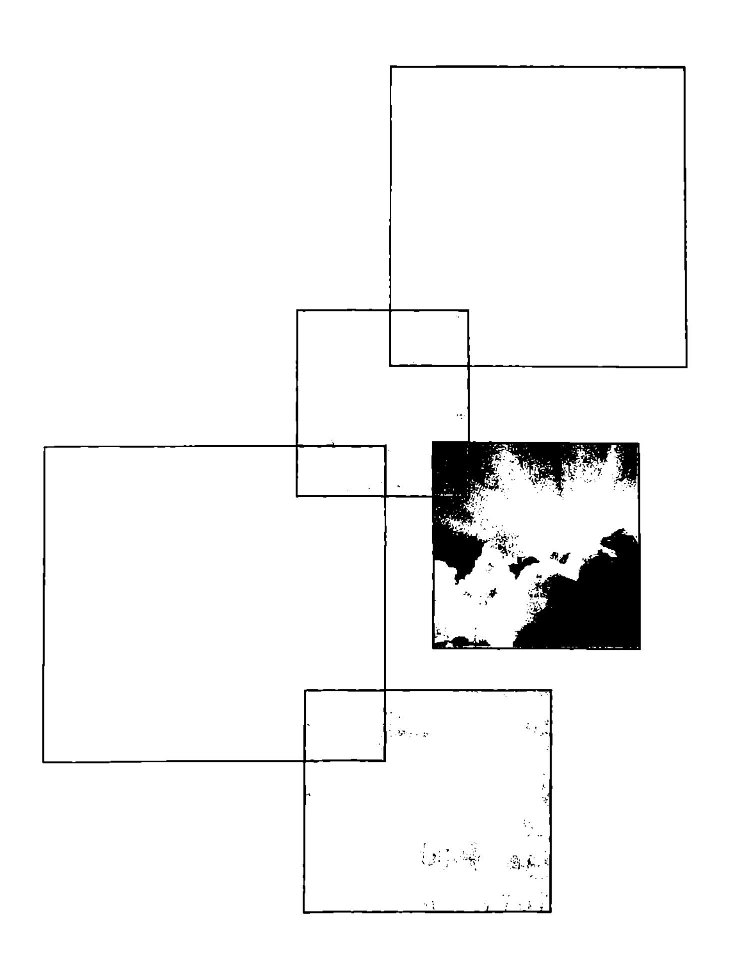
فأصبح القلب عليه مدار الأعمال.

٤- دلت الأدلة على أن الله يحول بين المرء وقلبُهُ؛ بأن يمنعه

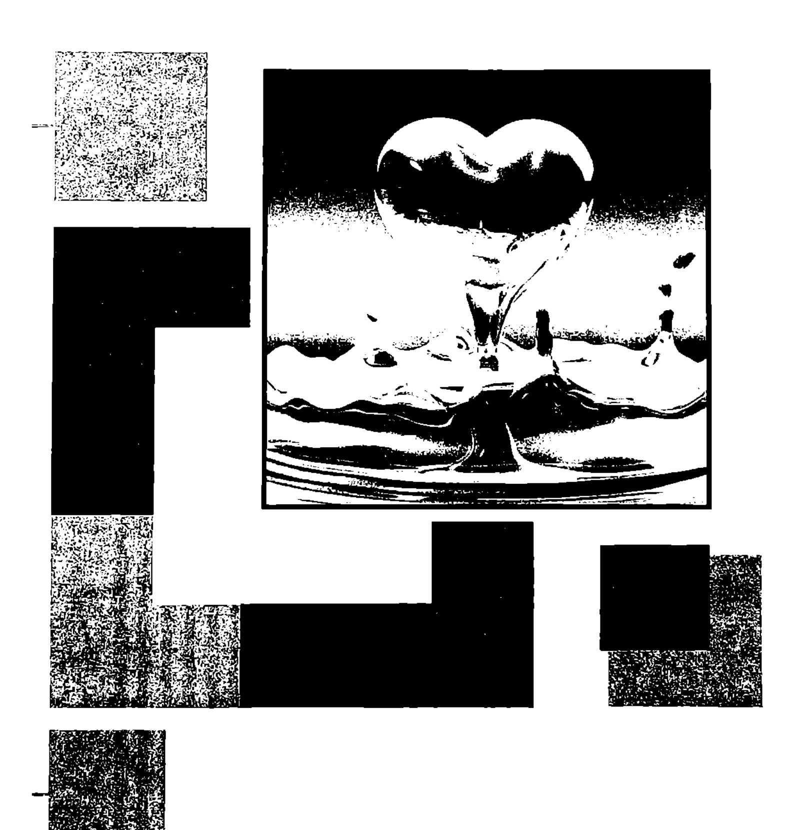
من معرفتِهِ ومراقبتِهِ، كما قال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ ومن تدبرات الآية: أن المرء لا يملك قلبه، كما تدل على قرب الله من القلوب، وأيضاً تدل على أن القلوب لا يوثق بها فهي تتقلب.

٥- دلت الأدلة وأقوال السلف على أن الحياةَ الطيبةَ هي حياةُ القلوب، وأعلى مقامات العلم هو علمُ القلوب بالله، وأن للقلب سعادةً وأُنساً تستحق أن يضحي الإنسان للحصول عليها، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ فلام التوكيد تجعل المؤمن يوقن بالجزاء، والتنوين والتنكير في كلمة (حياة طيبة) يفيد التعظيم فهي حياة لا تعادلها حياة، والقلب له أعظم نصيب من تلك الحياة.

٦- أظهرت الأدلة أن القلوب هي التي توصل إلى الله، فلا طريق أقرب من طريق القلب إلى الله، وهو الصراط المستقيم المذكور في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وإذا سار القلب على الصراط المستقيم في الدنيا، سار على الصراط الأخروي، فإن أسرع السير في الدنيا أسرعت به قدمه في الآخرة.



قواعد عامة
في فقه القلوب





قواعد في
أعمال القلوب

القاعدة الأولى

للقلب اطلاقان حسيٌ ومعنويٌ، والمعنويُ هو المقصودُ والحسيُ تبعٌ

القلبْ يطلق ويراد به أحد أمرين:

الأول: العضلة الصنوبرية الشكل - والصنوبرُ شجرٌ من المخروطيات-، المودعة في الجانبِ الأيسر، وهو القلبُ الحسي.

والثاني: هو لطيفةٌ ربانيةٌ روحانيةٌ مرتبطةٌ بالعواطف والمحبة والإدراك والفهم، ولها تعلق بالقلب الحسي الصنوبري.

والنصوص الشرعية التي وردت في القرآنِ عن القلب يراد بها القلب المعنوي بالدرجة الأولى، وللقلب الحسي ارتباطٌ بذلك، ولهذا يقول الدكتور محمد البار معلقا على كلام الإمام الغزالي حين قال: إن هذا القلب العضلي الصنوبري الموجود في الجانب الأيسر من الصدر له نوعُ تعلقٍ بالقلب المعنوي، ثم يقول الدكتور البار: « ومن

دَرَسَ علمَ وظائف الأعضاء اتضحت لَهُ بعض أسرارِ هذه العلاقة الوطيدة».

ونفيُ العلاقة بين القلبين كلياً إنما هي دليلٌ على عجزِ الطب وليس انتفاء العلاقة أو التشكيكُ بنصوص الوحي، ويبين ذلك أن كثيراً من الذنوب -وهي أمراض معنوية- تظهر آثارها أحياناً على البدن الحسي، فظلمةُ المعصية يراها أهل الفراسةِ على الوجه، ونورُ الإيمان يرونه مشعاً على الوجه، والمقصود إثبات العلاقة بين القلب الحسي والقلب المعنوي، ولعلَّ الله أن يمتنَ على عبادِهِ بتَقَدُّم الطب ليكتشف تلك العلاقة وتكون من ضمن آيات الله في الأنفس ومن حججه على عباده.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الثانية

مصدرُ بيانُ أعمالِ القلوبِ هي نصوصُ الوحي

جعل الله كتابه تبياناً لكل شيء، ومن تلك الأشياء التي بينها الكتاب والسنة القلب وأعماله وأحواله، ولم تُفصَّل الأدلة الشرعية شيئاً كما فصَّلت أعمال القلوب، فذكرت أصولها، ووسائل تحصيلها، وسُبل زيادتها، وأمراضها، ووسائل علاجها.

تدبر الآيات في شأن أعمال القلوب:

ويحسن أن يطيل المؤمن التدبر في نصوص الوحي ليهتدي لحياة قلبه؛ وقد ذُكر في القرآن أصول أعمال القلب، فمثلاً: قرر ابن القيم أن منزلة الإخبات هي أول منازل أعمال القلوب، فإذا تأملت قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾عرفت أن لفظ ﴿وَبَشِّرِ﴾ يفيد ذلك؛ لأن البشارة إنما هي بشيء آتٍ، وأدركت أن من أخبت قلبه وهدأ قاده ذلك للخضوع لأمر ربه والتعلق به، والمقصود تدبر منازل القلوب وأعمالها من خلال الآيات الشرعية.



الأنبياء هم أطباء القلوب:

ويعتبر الأنبياء عليهم السلام هم أطباء القلوب، فقد بينوا أعمال القلوب بياناً شافياً، ومن أكثرهم بياناً نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد استوعبت السنة القلب كاملاً ولم يبق له حاجة إلى بيان شافٍ آخر.

ويأتي بعدهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فهم أئمة هذا الباب، إلا أن كلامهم يحتاج إلى إيضاحٍ وبيان لكونه مختصراً، فهم يصلون إلى المراد بأقصر عبارة لسلامة أفهامهم ولدقة عباراتهم، وهم يأخذون من مشكاة النبوة، وفي كتب الزهد أقوال لهم كثيرة يحسن الالتفات لها وجمعها وفقهها.

ما فتحه الله على أهل العلم في أعمال القلوب:

وقد فتح على أهل العلم في هذا الباب كثيراً، خاصة أولئك الذين يعملون فكرهم في نصوص الوحي، ويأخذون من القرآن ويفسرونه بالسنة ويزيدونه بياناً بأقوال الصحابة، مع ما رزقهم الله من نور العلم وسلامة القصد وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، ثم شيخ الإسلام ابن

تيمية وابن القيم - وهما باسطا هذا العلم - ثم ابن رجب خاصة في رسائله في شروح الأحاديث ولابن عبدالبر جملة صالحة، ثم الغزالي وغيرهم كثير.

تلخيصك للقاعدة:





القاعدة الثالثة

أهلُ السنةِ وسطٌ في أعمالِ القلوب

جعل الله هذه الأمة وسطاً بين الأمم؛ فبعض الأمم قتلوا انبياءهم والبعض عبدوهم من دون الله، فجاء الله بهذه الأمة وسطاً، وجعل سبحانه أهل السنة والجماعة هم الفرقة الوسط بين الفرق.

وأهل السنة وسط أيضاً في أعمال القلوب، فالمتكلمون ومرجئة الفقهاء أنكروا دخولها في الإيمان، والصوفية غلوا فيها حتى أدخلوا فيها ماليس منها كما قرره ابن تيمية رحمه الله. [قاعدة في المحبة، ص٥٩].

ومن أبرز الانحرافات في أعمال القلوب عند المخالفين:

١- إهمال إدخالها في الإيمان، فلا يرون أنها جزء من الإيمان كما هو حال كثيرٍ من المتكلمين.

٢- قولهم بأنها لا تزيد ولاتنقص، وأن أهلها سواء في أصلها في القلب.

وليس أهل الإيمان كذلك لا في أصل أعمال القلوب في القلب ولا في أعمال الجوارح، فالتفاوت بينهم ظاهر كالتفاوت حال مرورهم على الصراط، فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يحبو حبواً، وبين ذلك درجات، وكذلك الحال في أعمال القلوب.

٣- تشويههم معانيها وإدخالهم فيها ماليس منها ومن ذلك:

أ) الرضا عند الصوفية: فيدخلون فيه الرضا بكل ما في الكون، حتى وصل بهم الأمر إلى الرضا بالكفر والفسوق والعصيان.

وليس هذا هو معنى الرضا الشرعي، ولا يعرفه الصحابة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ب) الزهد عند الصوفية: فجعلوه يشمل الزهد بكل شيء، حتى شمل الزهد بطلب العلم، وأنواعاً من المباحات على عادة النصارى وليس أهل الإسلام الذين قد يملكون الدنيا بأيديهم وليس في قلوبهم منها شيء.

٤- لا يرون أن بينها وبين أحكام الجوارح ارتباطاً، وهذا نتيجة لخلل في تعريف الإيمان عندهم، فيقصرُهُم



أكثرهم على قول القلب دون أعماله، وبعضهم يجعل الإيمان هو مجرد المعرفة، كما هو مبسوط في كتب الاعتقاد، ولم يألِ أهل السنة جهداً في الرد على المخالفين بالبيان وإقامة الحجة والترغيم للأعداء.

ومن الأمثلة لانحرافاتهم ما يلي:

١- إخراج الإرادة عن أعمال القلب مع أن الإرادة هي أصل الأعمال.

٢- جعلهم الرجاء منزلة ضعيفة لا تليق إلا بعوام المسلمين، مع أن الرجاء هو مقام الأنبياء عليهم السلام، فما منهم إلا راجٍ ربه.

٣- جعلهم التوكل في منزلة دنيا؛ لزعمهم أن فيه اعتماداً على الأسباب، وهذا لغياب التصور الشرعي الصحيح للتوكل، وإلا فإن التوكل هو أعلى مقامات المؤمنين، ولا يليقُ به إلا أن يكون في مقدمة أعمال القلوب.

تلخيص القاعدة:

القاعدة الرابعة

أعمالُ القلوبِ تزيدُ وتنقصُ

يقرر أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، ويشمل ذلك أعمال القلوب أيضاً فهي تزيد وتنقص.

الزيادة والنقص في الجوارح تبعاً لما في القلوب:

كما يقرر أهل السنة أن الزيادة والنقص في أعمال الجوارح إنما هي تبعٌ للزيادة والنقص في أعمال القلوب، ويستدلون بقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، وقوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾، فمن زاده الله خشوعاً زاد في الأعمال الصالحات، وكذلك من زاد الله هدى.

ومن أسباب زيادة أعمال القلوب:

١- تعلم العلم النافع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ فقرن بين العلم وإخبات القلوب إشارة إلى أثر العلم على أعمال القلوب، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فجعل الخشية تبعاً

للعلم، وأتى بصيغة المضارع (يخشى) إشارة إلى تجدد الخشية واستمرارها.

وأعلى العلم أثراً على أعمال القلوب: تَعلُّم القرآن وتدبره، فالقرآن يفعل في أعمال القلوب ما لا يفعله غيره.

٢- زيادةُ الأعمال الصالحة: وإنما ذكرت الزيادة لأن العلاقة بين القلب والجوارح متبادلة من الطرفين، فأحدهما مُؤثِّرٌ على الآخر، فأعمال القلوب أصل أعمال الجوارح، وأعمال الجوارح تؤثر على أعمال القلب، فاليد التي أنفقت لله إنما فعلت بدافع من القلب، فلما أطاعت وتصدقت عاد أثرها على القلب زكاة ونماءً وصلاحاً، وكلما أكثر العبد من الصالحات تكاثرت أعمال قلبِهِ وقويت وزادت.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الخامسة

القلوبُ لها صفاتٌ وأحوالٌ وانفعالاتٌ

للقلوبِ صفاتٌ ذكرت في نصوص الوحي، ومنها: الخشوع، واللين، والإخبات، والسلامة، والوجل، والتقوى، والطمأنينة، والإنابة، والسكينة، والطهارة، والعفة، والفقه، والهداية.

وكذلك: القسوة، والزيغ، والريب، والشك، والنفاق، والمرض، والغيظ، والتشتت، والإشراب، والاشمئزاز، والعمى، والغفلة، والإنكار، واللهو، والصغو.

وللقلوب أحوالٌ في المعرفة: فهو يعلم، ويعقل، ويتذكر، ويفقه، وغير ذلك.

وللقلوب انفعالاتٌ: فهو يألف، وينفر، ويطمئن، ويخاف، ويحب، ويرجو، ويتعلق، ويوجل، ويرأف.

وكذلك: يرتاب، ويشك، ويزيغ، ويضل، ويغلظ، ويقسو، ويتدبر، ويتقي، ويتعظ، وغير ذلك.

وكل ما سبق له دليل من الكتاب أو السنة، هذا يعطينا

دلالة واضحة على أهمية القلب في نصوص الوحي، ولهذا اهتمت الشريعة بالقلب فجاء ذكره في أكثر من مائة وثلاثين آية في القرآن بمختلف تصريفاته على مستوى الإفراد والتثنية والجمع، ومن ذلك ما يلي:

١- **الوجل:** ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢].

٢- **الإخبات:**﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤].

٣- **السلامة من الشرك دقيقة وجليله:** ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨،٨٩].

٤- **الإنابة:** ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٣٣].

٥- **الطمأنينة:** ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]..

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

٦- **اشترطها في المكره:** ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

٧- **التقوى:** ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى

ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢].. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ ﴾ [الحجرات:٣].

٨- الانشراح: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾ [الزمر:٢٢].

٩- السكينة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح:٤].

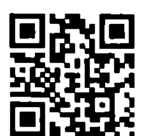
١٠- اللــين: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [لزمر:٢٣].

١١- الخشوع: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦].

١٢- الإنكار: ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

١٣- الكبر: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة السادسة

القلبُ ملكُ الأعضاءِ

للقلب عمل كبير في حياة الإنسان، وهو الذي إذا صَلَحَ صلحَ الجسد كله، وإذا فَسَدَ فسدَ الجسدَ كله؛ لأن الأعضاء كلها مرتبطة بالقلب، فهو الذي يُصَدِّقُ، ويُقر، ويكذب، ويَعرِف، ويَفقه، ويَألف، ويُنكر، ويُعرض، ويَصُد، ثم تتبعه الجوارح تبعاً له، وقد قال النبي ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»، فقال أبو هريرة رضي الله عنه مقرباً ذلك: «**القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده**» وكلام النبي عليه السلام «**أحسن بياناً، فإن الملك وإن كان صالحاً فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم، وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه؛ بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط**» [الفتاوى ٧/ ١٨٧].

منافذ القلب:

وللقلب منافذٌ تنفذ إليه الأمور من خلالها، وأشهر منافذه: العين والأذن، فالعين: ترى ثم ترسل إلى القلب وهو الذي يفقه، ويميز؛ فيهربُ إن كان المرئي مُـخيفاً، ويُقبِل إن كان مرغوباً.

والأذن: كذلك إنما هي حاجبٌ وحارسٌ على القلب، فترسل إليه المعلومات وهو الذي يميز بين الحق والباطل.

ما هو أشرفُ أعضاءِ الإنسان؟

واختلف أهل العلم في: أيّ أعضاء الإنسان أشرفُ وأكمل؟

فيرى ابن تيمية أن الشرف كالتالي: القلب ثم الأذن ثم العين، وسبب تأخير العين؛ لأنها لا ترى إلا الأشياء المادية المحسوسة، ولا ترى إلا من أمامِها؛ فلا ترى من الخلف ولا ما غابَ عنها، وهذا بخلاف الأذن؛ فإنها تسمع البعيد، وتسمعُ من كل جهاتها.

وسبب تقديم القلبِ على الأذن: لأن الأذن مجردُ آلةٍ وبريدٍ لتوصيل الكلام، أما التأملُ فيه وفحصه فيكون



بالقلب، ولهذا هو أشرف الأعضاء على الإطلاق، وترجيح ابن تيمية رحمه الله متوافق مع قوله: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ فجعل الذكرى تحصل على مرتبتين:

الأولى: لمن كان له قلب، والمراد به القلب الحي الذي يدرك ويميز.

الثانية: السمع، واشترط له شرطاً يتناسب مع تأخره في المرتبة عن القلب، وهو أن يكون السمع شهيداً أي: حاضراً مصغياً، فنلاحظ أن القلب لم يشترط له شيء لكماله وقوة إدراكه، بخلاف الأذن.

ويحسن التنبيه إلى أن بحث هذه المسألة عند ابن تيمية رحمه الله لم يكن ترفاً علمياً، وإنما ليُحْسِن المؤمن التعامل مع أعضائه، فيُقَدِّم ما حَقُّهُ التقديم، ويُعتني بوسائل الهداية عن طريق ذلك العضو.





القاعدة السابعة

القلـــوبُ تَتَقَـــلَّبُ

القلب معرّضٌ للصحة والمرض، فيصِحُّ أحياناً ويَمرَضُ أحياناً، ويَنشَط تارةً ويَفتُر أخرى، ويُقبلُ حالاً ويُدبر ثانية، ويُحِبُ ويُبغض.

بل وفي المنزلة الواحدة يتفاوت كالمرض مثلاً، فقد يكون مرضه خفيفاً وقد يكون شديداً، بأحوال متفاوتة لا يعلمها إلا مُقَدِّرُها سبحانه، ولهذا أوصت الشريعة بتعاهد القلب وفقهِ حالِهِ، وأن يكون الإنسان على دراية بقلبه ودرجاته وتقلبه وفتنته.

سببُ تسميةِ القلبِ قلباً:

وإنما سمي القلب قلباً: إما لتقلبه وعدم ثباته على حالٍ واحدة، أو لأنه قالب البدن وخلاصته فهو أهم عضو فيه، والأول أشهر، ولا يوجد مانعٌ من قبول القولين جميعاً فليسا بمتعارضين؛ فلأهميته وكونه خلاصة البدن يجب الحذر من تقلبه.

تقلبُ القلبِ وسببُهُ:

وقد قال ﷺ: «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يصرفه حيث شاء» [رواه مسلم (١٧)]. وهو حديث يربي في القلب الخوف، وسؤال الضراعة من الله دائماً، وألَّا يأمن الإنسان على نفسه الفتنة، كما هو حال إبراهيم عليه السلام في خوفه من فتنة الأصنام المنتشرة في زمانه، فالشيء إذا انتشر لم يكن الإنسان بمأمنٍ أن يصيبه أو أهل بيته.

وسببُ تقلُّب القلب أمران:

أحدهما: يعود لطبيعة القلب فهو رقيق فطري، كالشيء على فطرته لا تجد به صعوبة في ذاته، وإنما تأتيه الصعوبة من غيره.

والآخر: لعداوة الشيطان وقعوده على الصراط المستقيم، وإغوائه للمؤمن في كل طريق، ومن أهم ما يغوي فيه المؤمن أعمال القلوب.

فائدة ذكر اسم (الرحمن) في الحديث السابق:

وذكر اسم (الرحمن) في قوله ﷺ: «بين أصبعين من أصابع الرحمن»؛ لئلا يصل الخوف من تقلب القلب إلى القنوط

من رحمة الله؛ فالله رحيم بعبده إذا علم اجتهاده وضراعته فلن يخذله، ومن تقرب إلى الله شبراً تقرب الله منه ذراعاً.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الثامنة

وظيفةُ القلب العلمُ بالله ومحبتُهُ وعبادتُهُ

خلقَ الله كل عضو من الأعضاء ليؤدي عملاً؛ فالعين تبصر، والأذن تسمع، واليد تبطش، فمن استعمل أعضاءه في غير ما خُلقت له فقد ظَلم نفسه، وظَلم أعضاءه التي رزقه الله إياها.

وقد بينت الشريعة وظائف الأعضاء الثلاثة في آية جامعة هي قوله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فالقلب للفقه والعلم، والعين للبصر، والأذن للسمع.

فالقلب إنما خلقه الله ليَعلم العبدُ به ربه، وليَعلم أسماءَه وصفاتِه، ومرادَ الله وما يحبه وما يكرهه، وأوامره ونواهيه، فمن صرف قلبه لذلك فقد أصلح حاله وقلبه.

علمُ القلب مرتبةٌ زائدةٌ على مجرد المعرفة:

ولا يراد بعلم القلب أن يعرف ربه وأسماءه معرفة نظرية، وإنما المراد مرتبةٌ زائدةٌ على ذلك وهي: أن يعقل ذلك ويضبطه ويعمل بمقتضاه، وهو الذي أسمته الآية (فقهاً).

وإذا كان القلب يجب عليه معرفة الحق؛ فالله هو الحق المبين الظاهر سبحانه وتعالى، فلا يليق بالقلب إلا أن يتعلق به، ويحبه، ويعرف مراده.

ومن استعمل قلبه في غير ذلك فلا يخلو من حالتين:

الأولى: أن يهمل قلبه ويتركه بطَّالاً فذلك الخسران المبين، وهذا الجاهل.

الثانية: أن يستعمل القلب في خلاف ما خُلق له فهذا هو الظالم.

ويجمع الحالتين قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومن أعطاه الله قلباً فضيعه يدخل دخولاً أولياً في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

فإذا عرف القلب ربه كانت حياته، وسعادته، واستقامته، وصلاحه، وثباته، وزكاته، وإذا ابتعد القلب عن ذلك مَرِضَ؛ فإن استدرك صاحبه علاجه وإلا فهو موته.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة التاسعة:

أعمالُ القلوب جزءٌ من الإيمان

الإيمان عند أهل السنة والجماعة يتركب من أربعة أمور هي:

أ) **قولُ القلب** وهو: اعترافه وتصديقه وإقراره ومعرفته؛ كأن يعتقد الإنسان ويصدق بما أخبر به الله عن نفسه، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وملائكته، وغير ذلك.

ب) **عملُ القلب** وهو: انقياده، وإخلاصه لما صدَّق به، وتوابعه من أعمال القلوب كالتوكل، والرجاء، والمحبة، والصبر، وغير ذلك.

ج) **قولُ اللسان** وهو: النطق بالشهادتين وسائر العبادات التي تؤدى باللسان، كتلاوة القرآن، والأذكار، وغير ذلك.

د) **عملُ الجوارح** وهو: ما يؤدى بالجوارح من الأعمال المشروعة كالصلاة، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك.



فتبين أن أعمال القلب جزء من الإيمان؛ ولهذا يعظم عند السلف الاهتمام بأعمال القلوب؛ لأن الاهتمام بها اهتمام بالإيمان.

لِم اقتصر السلفُ على تعريف الإيمان بالقول والعمل؟

والسلف رحمهم الله حينما قالوا في تعريف الإيمان: قول وعمل، فيقصدون الأربعة أجزاء السابقة عند التفصيل؛ لأنهم أطلقوا كلمة (قول) وكلمة (عمل) عن أي تقييد؛ فتشمل القلب واللسان والجوارح.

وسبب اقتصارهم على القول والعمل؛ لأن حقيقة الإنسان هي: (قلبه وأعضاؤه) فقالوا: قول وعمل، فأعطوا كل عضو ما يناسبه، القول للقلب، والعمل للأعضاء، وهذا لكمال فقههم وعلمهم وسلامة فطرتهم.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة العاشرة:

قولُ القلبِ وعملُهُ متلازمان

تبين أن للقلب قولاً وعملاً، وهذان الأمران متلازمان مترابطان بعضهما مع بعض.

فقولُ القلبِ يشمل أمرين هما:

أ) **التصديق الذهني بالأخبار والإقرار بها والاعتراف.**

ب) **والتصديق العملي** وهو: أن ينقاد ويذل ويستسلم لكلام الله، ويحب ويعتمد على إلهه، فمسمى (قول القلب) يشملها جميعاً.

التلازمُ بين قولِ القلبِ وعملِهِ:

فنلاحظ أن قولَ القلب وعملً القلب مرتبطان بعضهما مع بعض، فقولُ القلب يستلزمُ عمل القلب، وعمل القلب يتضمن قول القلب، ولهذا التلازم كان بعض السلف إذا سُئل عن الإيمان يقول: هو قولٌ وعمل ويقصد بالقول قول القلب وعمل القلب، ويقصد بالعمل عمل الجوارح،



فيسمي كل ما صدر عن القلب: قول القلب؛ لأن قول القلب يتضمن قضيتين: التصديق والإقرار، ويتضمن الانقياد والامتثال، وسواء أُدخلت أعمال القلب مع قوله أو مع الأعمال فالأمر سهل، إلا أن الذي لا يقبل هو إخراج أعمال القلب عن الإيمان كما هو شأن المخالفين.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الحادية عشر:

أعمالُ القلوب هي ما يتعلقُ بالقلبِ دونَ الجوارحِ

وضع أهل العلم ضابطاً للتفريق بين قول القلب وعمله، وهذا دليل على دقة أهل العلم في التعامل مع قضاياه، فمع تلازم الأمرين إلا أن ذلك لا يعني انعدام الفرق بينهما، فقال الشيخ السعدي رحمه الله مبيناً الفرق بين قول القلب وعمل القلب: (والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله: أن أقواله هي العقائد التي يعترف بها القلب ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله، وضابطها محبة الخير وإرادته الجازمة، وكراهية الشر والعزم على تركه) [التنبيهات اللطيفة، ص٩١].

وهنا أُبينُ حقيقةَ أعمالِ القلبِ من خلال ما يلي:

١ - أنَّ أعمال القلب هي الأعمال التي يتعلق أداؤها بالقلب دون سائر الجوارح.

٢- أنَّ أعمال القلب منها الواجب ومنها المستحب كما سيأتي بيانه.

٣- أنَّ أعمال القلب متداخلة مع بعضها، فاليقين، والمحبة، والإخلاص، والتوكل، والرضا، والصدق مقترنةٌ بعضها مع بعضٍ، ومتداخلةٌ فيما بينها، وإن كان هناك فروق دقيقة لطيفة فيما بينها يذكرها أهل العلم في بابها.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الثانية عشر:

أعمالُ القلبِ تعتريها الأحكامُ التكليفيةُ الخمسةُ

تختلف أعمال القلوب من حيث الأحكام الشرعية إلى خمسة أقسام:

أ) **الأعمال الواجبة والمستحبة**: مثل: الإخلاص، والتوكل، والمحبة، والخوف، والشكر، والرجاء، والإنابة، والصدق، وغير ذلك، وهذه واجبة بالجملة، وقد يختلف أهل العلم في بعضها كالرضا.

وكل واحدة من الأعمال السابقة لها طرفان: واجب مستحق، وكمال مستحب؛ فمثلاً المحبة لها درجتان:

الواجبة: أن يكون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه مما سواهما، وأن يحب ما أوجبه الله ويبغض ما أبغضه الله.

المستحبة: أن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة.

وأهل الإيمان يكون تفاوتهم ما بين هاتين الدرجتين، فمنهم من حقَّقَ أدناها فأدخله ذلك في مسمى الإسلام كمن حقَّقَ أدنى حب الله، والخوف منه، ومنهم من ارتفعت درجته لارتفاع محبته وخوفه، وهذا يؤكد على ضرورة فقه أعمال القلوب؛ ليعرف العبد المنازل الواجبة عليه، والمنازل المستحبة له؛ ولئلا يظن العبد أحياناً أنه مُـحَقِقٌ للمحبة بينما هو في أدنى درجاتها.

ب) **الأعمال المباحة**: كالخوف الطبيعي والمحبة الطبيعية، فهي مباحة إلا أن أراد بها طاعةً فتنقلبُ في حق فاعلها طاعة يثاب عليها.

ج) **المحرمة والمكروهة**: كالكبر، والرياء، والعُجب، والحسد، والغفلة وغيرها، وصبره عن المستحبات مكروه أيضاً، وكذلك صبره على المكروهات مكروهٌ أيضاً.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الثالثة عشر:

أركانُ العبادةِ هي من أعمالِ القلوب

خلق الله الخلق لعبادته كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وكمال المخلوق إنما هو في عبادته لله، والعبادة شاملةٌ لجميع أمور الحياة، وأقوالِ العبد، وأفعاله الظاهرةِ والباطنة، ولا يمكن للعبادة أن تكون عبادة شرعية صحيحة حتى يعرف العبد أعمال القلب المرتبطة بعباداته، وهي أركانها، وأركان العبادة ثلاثة:

١- المحـــبة.

٢- الخـــوف.

٣- الرجـاء.

وهذه الثلاثةُ هي أعمالٌ قلبية، وبزيادتها تزداد العبادة، وبضعفها تضعف، وبنقصها تنقص، ولابد من التلازم بينها، فمن أدى عبادته لله وقلبه ممتلئ بمحبة الله الآمر بالعبادة،

فسيؤديه ذلك إلى خوفه من عقاب محبوبه لو فرط فيها، ويصاحبه رجاءٌ لمحبوبه أن يتقبلها وألَّا يعاقبه على تقصيره.

فظهر بذلك أهمية أعمال القلب بالنسبة للعبادة، وأنها لا تكون عبادة شرعية صحيحة حتى تكتمل أركانها المتعلقة بأعمال القلب.

الخللُ في العبادةِ تبعٌ لخللٍ في أعمالِ القلب:

وأي خللٍ في مفهوم العبادة لا بد أن يكون بسبب خللٍ في أعمال القلب، فمن لم يتصور العبادة على حقيقتها الشرعية؛ فإنما هو لخللٍ في مفهوم منزلة المحبة أو الخوف أو الرجاء أو كلها مجتمعة؛ وهذا يدلنا على أن الخطورة في ضياع بعض العبادات بسبب ضياع أعمال القلوب، وهذا أحد لطائف قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والتقوى من أعمال القلوب، حيث علَّق القبول على تقوى القلب لا على مجرد عمل الجوارح.

وبهذا يتضح حكمةُ تتابع الأعمال التي فيها مغفرة كالصلوات والجمعة ورمضان والحج وعرفة وعاشوراء؛

فإن العبرة بالمغفرة ليست بالأداء المجرد، إنما بأعمال الجوارح مع أعمال القلب، وهذا شأنٌ كبير إلا على الخاشعين، فكان من رحمةِ الله أن تتكاثرَ أسبابُ مغفرة الذنوب.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الرابعة عشر:

أعمالُ القلبِ أوجبُ وأفرضُ من أعمالِ الجوارحِ

ومعنى ذلك أن أعمالَ القلب أشدُّ وجوباً من أعمالِ الجوارح، ويتبين ذلك من خلال ما يلي:

١- أن أعمالَ القلب هي أصلُ أعمالِ الجوارح، وأصلُ الإيمان إنما هو في القلب، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وما كان أصلاً فهو أشدُّ وجوباً من فرعه.

٢- أن أعمال الجوارح إنما هي تصديقٌ لما في القلب من الإيمان، وشاهد عليه، كما قال ابن القيم [بدائع الفوائد ٣/ ١٨٧]: «**معرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عنها**»، وحكم الشاهد التابع ليس كحكمِ أصلِهِ.

٣- أن عبودية القلب أدوم من عبودية الجوارح؛ فالإيمان واجبُ القلب على الدوام، بينما الإسلامُ واجبُ الجوارح

في بعض الأحيان، فالصلاة - وهي رأس الأعمال - لا تجب دائماً في كل وقت، بينما اليقين لا ينفك عنه القلب، والأدوم أشد وجوباً وأفرض من غيره.

٤ـ أن نصوص الوحي، وكلام الصحابة في أعمال القلوب أكثر من غيره من أبواب الدين، وذلك لأهميتها.

وعلى هذا فيترتب أن:

١- أعمال القلب الواجبة أفرضُ من أعمال الجوارح الواجبة.

٢- ومستحبُ أعمال القلب أحب إلى الله من مستحب أعمال الجوارح.

٣- أن الجهل في أعمال القلوب أشد من الجهل في الأحكام الفقهية؛ إذ من الأحكام ماليس بواجب، ومنه ما يجب في العمر مرة.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الخامسة عشر:

القلوبُ هي محلُ نظرِ الله

قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم». [رواه مسلم برقم(٣٣)].

والحديثُ يوجبُ عدةَ أمورٍ هي:

١- أنه يُوجبُ صرف الهمة إلى العنايةِ بالقلبِ وأحوالِهِ وتحقيقِ أعماله، وتصحيح مقاصدِهِ أكثر من غيرِهِ.

٢- أن القلوبَ محلُ نظر الله سبحانه وتعالى؛ وما كان كذلك فيجب تطهيرهُ، وتزكيتُهُ.

٣- أن قبول الله للأعمالِ ليس للأكثر فحسب، وإنما للأكثرِ صفاءً وإخلاصاً.

٤- أن الاجتهادَ في إصلاح القلب يوفر الوقت في تحصيل الدرجات العالية من درجات الإيمانِ ومقاماتِهِ، فقد يسبقُ المتأخرُ في توبتِهِ غيرَه حينما يكونُ أكمل في أعمال القلوب.

٥- في الحديث تحذير من اختلال موازين الأولويات في التربية، بالاهتمام بالظاهر وإهمال الباطن، ومن ذلك تركُ العلم في أعمالِ القلب ودراستِها وفقهِها ومعرفةِ أحوالِـها والتدرج فيها، والتفريقِ بين الواجب منها والمستحب، وهذا فقهٌ شريف.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة السادسة عشر:

العباداتُ تتفاوت بحسبِ أحوالِ القلوبِ

ومعنى **القاعدة**: أن مدارَ تفاضل العبادات عند الله ليسَ في ذاتِ العمل ومكانتِهِ في الشريعة، وإنما يزيدُ أجرُه، ويكبرُ مقدارُهُ بناءً على ما قامَ في قلبِ صاحبِهِ من أعمالٍ قلبية حين أدائه له.

ويدلُّ على ذلك حديث عمر المرفوع: « **إنما الأعمال بالنيات**»؛ فالأعمال يعظم قدرها ويصغر بناء على ما في القلوب من أعمال، فقد يضيع الجهادُ بسبب فسادِ نية، وقد يَعظُم إزالة الأذى عن الطريق إذا كان الدافعُ لها الإخلاص لله وحده.

التفاضل بين المؤمنين في العمل الواحد:

وحتى في العمل الواحد كالصلاة مثلاً قد تجدُ الفرق بين صلاة الرجلين كالفرقِ بين السماء والأرض؛ بناءً على تفاوتهما في أعمالِ القلب؛ فمن أدى صلاتَهُ بعبوديةِ لله

مخلصاً له فيها، خاضعاً، خائفاً، محباً للآمر بها، مستشعراً ربَهُ أمامَهُ يسمعُ ويرى، ليس كمن سها في صلاتِهِ وغفلَ عنها فلم يدرِ كم صلى؟!

ومن هذا الباب أن درهماً سبق ألف درهم، وإنما سبقه لما قام في قلب بَاذِلِهِ من أعمالٍ قلبية جعلتهُ يقعُ عندَ الله الموقعَ الحسن.

وكذلك غُفر للمرأة البَغِّي التي سقت الكلب؛ لأنه قام في قلبها تلك اللحظة من أعمال القلوب من الصدق لله، ورجائه ما أحرقَ نورُه ظلمةَ ذنوبها.

وقرَّر أهل السنة والجماعة أن أعمالَ القلوبِ تتفاضل؛ فقد يجدُ شخصٌ من المحبة والخشيةِ أكثر ما يجده غيره، والشخص الواحدِ قد تمرُ عليه أوقاتٌ هو أكملُ في أعمالِ قلبِهِ من أوقاتٍ أخرى.





القاعدة السابعة عشر:

أعمالُ الجوارحِ لا تنفع بدونِ أعمالِ القلوب

معنى القاعدة: أن أعمالَ الجوارحِ إذا كانت بدونِ إخلاصٍ ومحبةٍ وصدقٍ وخضوعٍ لله؛ فإنها لا تنفعُ؛ وهذا حالُ المنافقين.

الترابطُ بين أعمالِ القلبِ وأعمالِ الجوارح:

أعمال الجوارح مرتبطةٌ بأعمال القلب ارتباط الفرع بأصله، فأعمال القلب هي الأصل وأعمال الجوارح هي الفرع، ولو خالف الظاهرُ الباطن فالعبرة عند الله بما في الباطن لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

ولقوة هذا الترابط بين القلب والجوارح نتج ما يلي:

١- كل ما استقر في القلب من إيمانٍ أو نفاقٍ فلا بد أن يظهرَ مُوجبُهُ من القول والعمل على الجوارح.

٢- إذا نقصت الأعمال الظاهرةُ الواجبة فذلك لنقصٍ ما في

القلب من الإيمان.

٣- إذا عُدمَت طاعةُ القلب عدمت طاعة الجوارح.

٤- يلزم من عدم طاعة الجوارح عدمُ طاعة القلب، فما كان في القلب سرى إلى البدن ولا بد.

ما الخلل الذي يترتبُ على عدمِ فهم العلاقةِ بين القلب والجوارح؟

ويترتبُ على عدم فهم العلاقةِ بين القلبِ والجوارح أمران خطيران:

١- ظنُّ وجود إنسانٍ كامل الإيمان في قلبِهِ مع عدمِ عملِ جوارحِهِ أي عملٍ مطلقاً من أعمال الإيمان؛ فمثل هذا لا يمكن وجوده أبداً في الواقع.

٢- الزعم بأن تماثل المسلمين في أعمال الجوارح يقتضي تماثلهم في الإيمان؛ وهذا غير صحيح لتفاوت ما في القلوب من أعمال قلبية هي محل نظر الرب.



....

القاعدة الثامنة عشر:

أعمالُ القلبِ بعضُها يستلزمُ بعضاً، وبعضُها يتضمنُ بعضاً

ومعنى هذه القاعدة: أن أعمال القلوب فيما بينها لها فقهٌ خاص؛ فقد يلزمُ من وجود بعضها وجودُ البعضِ الآخر، وقد يلزم من انتفاء بعضها انتفاءُ أعمالٍ أخرى.

أمثلة على القاعدة:

فمثالُ التلازم: أن تحقيقَ الرجاءِ الشرعي يستلزمُ وجود المحبةِ والخوف؛ فمن كان صادقاً في رجائه لا بد أن يكون رجاؤه مدفوعاً بكمال محبته لربه، ولابد أن يكون معه خوفٌ من فوات مطلوبه، فاجتمع له مع الرجاء المحبةُ والخوفُ.

وكذلك: التوكل يتضمن الثقة والتفويض، فالتوكل لا يتحققُ إلا وقد تحققت الثقة بالله مع تفويض الأمر كله لله الذي بيده الأمر والنهي.

فنلاحظ بالمثالين أن العمل القلبي الواحد استلزم

وجوده وجود أعمالٍ أخرى، وذلك تبعاً لفقه العلاقة بين الأعمال القلبية.

ومثال الانتفاء: أن من انتفى عنده الصبر فقد انتفى عنده الرضا ولا بد؛ لأن الرضا لا يقوم إلا على أرض الصبر، فإذا زالت الأرض زال ما بُني عليها.

ذكرُ أعمالٍ قلبية في نصوصِ الوحي يتضمنُ مالم يُذكر:

وإذا ورد عملٌ قلبي في بعض النصوص الشرعية ففيه إشارةٌ إلى مالم يذكر مما يلزم وجوده، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فذكرُ وجلِ القلب يقتضي خشية الله والخوف منه ورجاءه بالمقام الأول، وذلك لأن الوجل وهو رجفان القلب من مقامات الخوف، ولكونه خوفاً مقرون بعلم بالله وصفاته فقد تحققت الخشية؛ ولكي لا يكون الوجل يأساً فلا بد من وجود الرجاء، فانظر كيف تضمنت الآية الكريمة أصولاً في أعمال القلوب.

هل أعمال القلوب تُعدم بالانتقال فيها من عملٍ إلى عملٍ آخر؟

أعمال القلوب لا تُعدم بالتنقل فيها؛ بل تندرجُ وينطوي الأدنى في الأعلى كما يندرج الإيمانُ في الإحسان، والصبرُ في الرضا، لا أن الصبر يزول، كما قرره ابن القيم رحمه الله.

فائدةُ هذه القاعدة:

وفائدة هذه القاعدة أنها تجعل المؤمن فقيهاً في تحقيق أعمال القلب العالية التي يكون بتحقيقها قد استلزم أعمالاً قلبية أخرى، فمن اجتهد في تحصيل منزلة المحبة والتوكل فقد ضمن تحقيق عدة أعمالٍ قلبية.

إضافة لكون القاعدة تقرب علم أعمال القلوب؛ كمن أتقن علم العربية فقد قَرُبَ له علم التفسير والتدبر؛ لاشتمالهما على علم العربية فكذلك الحال هنا.





القاعدة التاسعة عشر:

القلوبُ ثلاثةٌ: الحيُ والميتُ والمريضُ

دلت الأدلة من الكتاب والسنة على أن القلب ينقسم إلى ثلاثة أحوال:

أ) **القلب الحي وهو**: السليم من الشرك والبدعة، ووصفه ابن القيم بقوله: (وهو الذي همه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث إليه أشهى من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه). [إغاثة اللهفان، ١/ ٨٦].

هل القلبُ السليمْ يقتضي البلادةَ؟

ويظن البعض أن هذا القلب قلبٌ غافل ساه لا يعرف الشر وفيه حمقٌ وبلاهةٌ، لكون أعمال القلوب تورث الضعف، وقد لَحَظ ابن تيمية ذلك فقال: «**القلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن**



يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقصٌ».
[الفتاوى١٠/ ٣٠٢].

فهناك فرقٌ بين التغافل عن الشر وأساليبه،والحمق الذي لا يعرف الشر ودروبه.

ب) **القلب الميت** وهو: الذي لا يقبل الحق، ولا ينقاد له، وهو قلب الكافر والمنافق، وسُمي ميتاً؛ لأنه لا إحساس فيه كالميت، فليس فيه إرادةٌ للحق، ولا تمييزٌ بين الحق والباطل، ولا كراهيةٌ للباطل، وموت القلب بمنزلة موت الجسد الذي لا يحس بلذة الطعام.

ويُسمى كذلك **القلبُ القاسي** إشارة إلى جموده ويبسه بمنزلة الحجر، وهو القلب الذي يسير مع شهواته ولو كان فيها إغضاب ربه، ولا يفكر إلا في تحصيل أغراضه الدنيوية، ويتبع كل شيطان مريد، وهذا قلبٌ استراح الشيطان من عنائه؛ لأنه تمكن فيه غايةَ التَمَكُّن فهو يعبثُ فيه كما يشاءُ، ومن أوصاف هذا القلب التي جاءت في النصوص: القسوة، والختم، والطبع، والقفل، والأكنة، والغلاف، والرين، والزيغ.

الله يحيي القلوب الميتةَ كما يحيي الأرضَ الميتة:

وينبغي أن يعلم أن الله يحيي الأرض بعد موتها، وكذلك يحيي القلوب بعد موتها، ومن اسمائه الحي ومن صفاته الحياة، فكل حياة في الخلق إنما هي من آثار حياته، فما من حيٍ إلا والحيُ سبحانه أحياه، وقد قرن الله بين القلوب الميتة وإحيائه الأرض الميتة فقال: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٦-١٧].

فما من قلبٍ ميتٍ إلا وحياتُهُ بيد الله، وهو القادرُ على إحيائِهِ.

ج) القلبُ المريض وهو: القلب الذي خرج عن صحته واعتداله، وقد يشتد مرضه فيموت كقلب المنافق، وقد يكون أقل من ذلك كالمسلم العاصي المريض بالشبهات أو الشهوات، وهو على خطر عظيم.

الذنوبُ للقلوبِ كالأمراضِ للأبدان:

والذنوبُ للقلوبِ كالأمراضِ للبدن، تُضعِفُهُ، وتُذهِبُ حياتَهُ، وتُذبِل قوته، وقد يَـمرض ولا يَشعر به صاحبه، كما أن بعض أمراض البدن كامنٌ لا يشعر به صاحبه.



والذنوب للقلوب أخطر من الأمراض للأبدان؛ إذ غاية الأمراض أن تؤدي بالإنسان للموت الذي هو نهاية كل حي، بينما مرض القلب قد يؤدي إلى الخلود في النار.

تلخيص للقاعدة:



القاعدة العشرون:

الذكرُ للقلبِ بمنزلةِ الغذاءِ للبدنِ

لما خلق الله القلب جعل له غذاءً لا يتغذى إلا عليه، كما أن للبدنِ غذاءً لا يتغذى إلا عليه، ولو تغذى من غير ما يناسبُهُ لهَلك، فكذلك القلبُ له غذاؤه الخاص، ويُعطي الله للذاكر أكثرَ مما يُعطي غيره، ومن أفضل أُعطيات الله للذاكر أنه يعينُهُ على ذكرِهِ، فما أُعطي القلب خيراً منها، لكن النفس -لجهلها- تتعلقُ بالأعطياتِ التي توافقُ شَهواتِها، وإلا فركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها، وآيتان خيرٌ من ناقتين وثلاثٌ خير من ثلاث كما قاله النبي عليه السلام.

وغذاءُ القلب: ذكر الله؛ ويترتب على ذلك أن نقص الذكر نقصٌ لغذاء القلب؛ فيضعفُ ويتعرضُ للأمراض، فقليل الذكر تجده كثير الغفلة، وقد يصل بقلة الذكر حتى يقع القلب بالنفاق كما قال: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، فكما أن نقصَ غذاءِ البدن يوقعُ في أمراضٍ صغيرةٍ في أول الأمر، فإن استحكم نقصُ الغذاءِ أُصيبَ البدنُ بالأمراضِ



المستعصية؛ لأن البدن قليل الطعام ضعيف المناعة، فكذلك القلب قليل الذكر يشتد مرضه مع الأيام.

القلبُ السليمُ يتلذذُ بالغذاء:

وأيضاً كما أن البدنَ السليم يتلذذُ بالأكل؛ فكذلك القلبُ السليمُ يتلذذُ بذكر الله، ويجدُ به أنسَهُ، ولذته، وسعادته، وعلى العكس من ذلك فالقلب المريض لا يتلذذ بالذكر، ولا يجد له حلاوةً، ويأباه، وينفر منه.

ويُنتَبه إلى أن المقصودَ بذكرِ الله هو: معناه العام الذي يُذكِّرُك بالله، إما بالتسبيح والأذكار، أو بالعلم وتَعَلُّمه، أو بالأعمال القلبية الزاكية كتحقيق العبودية.

وأما سبب كونِ الذكرِ من بين العبادات هو غذاءُ القلب؛ فيجيبُ عنه ابن القيم رحمه الله في كتابه (الوابل الصيب) بذكرِهِ قرابةَ مائة فائدة من فوائد الذكر.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الحادية والعشرون:

القلبُ إذا سارَ إلى اللّه له وجهان

ومعنى القاعدة: أن القلبَ في حالِ عبادته وسيره في هذه الحياة الدنيا يقطعها وصولاً إلى ربه ومعرفته، والتعرف على صفاته، وأوامره، ونواهيه؛ فإن لقلبه وجهين يقبل بهما ويدبر أثناء سيره إلى الله، وهما:

الأول: هو وجهٌ مقبلٌ للحق والعلم والفقه والدراية.

والثاني: وجهٌ معرضٌ عن الباطل.

العلاقةُ بين الوجهين:

فعلى قدرِ إقبالِهِ بالوجه الأول يكونُ إعراضُهُ عن الوجه الثاني، إذ لا يمكن للقلب أن يتجه إلى الحق والباطل في آنٍ واحد، كما أن المحلَ لا يجتمعُ فيه حقٌّ وباطلٌ، بل هو حقٌّ من وجه وباطل من وجه آخر، أما أن يكون الشيء حقاً وباطلاً في وقت واحد فلا؛ ولهذا متى ما أقبل القلب على الحق فقد أعرضَ عن الباطل، وذلك أيضاً في أفعالِ الجوارح فمن عمل طاعة فقد ابتعد عن المعصية أثناء تلبسه

بالطاعة، فكيف إذا كان دائمَ التَلبُسِ بالطاعة إن أمكن؟!.

ومما له دورٌ في اتجاه القلب للحق وبعده عن الباطل: مسارعته في الخيرات فكلما سارع وبادر وسابق فقد ابتعد بشكل كبيرٍ عن الباطل؛ ولهذا جاءَ هذا اللفظ في القرآن (وسابقوا) (وسارعوا) وجاء في السنة (بادروا)، وما أقربَ الباطل من العبد المتردد الذي يعبد الله على حرف، وذلك لأنه لم يبتعد عن الباطل كثيراً، فهو سريع الانجذاب إليه.

ويمكننا القولُ بمعكوسِ القضية: فمتى ما اشتغل القلب بالباطل وتقريره فسيكون له وجهان، وجه يُقبلُ به على الباطل، والوجهُ الآخرُ يُعرِضُ به عن الحق ويتجه إلى الشهوات والشبهات.

وفائدة هذه القاعدة: أنها تُبينُ للعبد أهمية السير إلى الله إذ أنه أمانٌ من الباطل والرعي حَولَ حِماهُ، ومن أسماء الله المؤمن، ومن آثار ذلك أنه يُؤَمِّنُ من يُقبِل عليه.



القاعدة الثانية والعشرون:

كُلما عَرفَ القلبُ ربَهُ زادَ خوفُهُ منه

أساسُ دعوة الرسل هو تعريف الخلق بربهم وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة الله هي المحركُ لأعمالِ القلوب، فمن عَرَفَ ربَهُ زادَ خوفُهُ منه، وسببُ ذلك:

١- لأن من عَرفَ ربهُ يُطالَب بها لا يُطالَبُ به غيرُه، فليس من جَهِلَ الله كمن عرفَهُ، فمن عرف صفات القوة والبطش والجبروت والعظمة ليس كمن جهل ذلك.

٢- ولأن صاحبَ تلك المنزلةِ يرعى حقوقها أكثر مما يفعلهُ من لم يَصِل إليها، كحال عبدٍ عَرَفَ سيدَهُ عن قُربٍ، وقرّبَهُ سيدُهُ إليه، فهو على خوفِ فواتِ ذلك القرب أكثر اجتهاداً من العبد البعيد عن السيد.

ولما كان جبريل عليه السلام من أعرفِ المخلوقات بالله كان أكثرها خوفاً، والنبي ﷺ لكمال علمه ومعرفته بربه كان أكثِر العِباد خشيةً لله.



لَذَّةُ معرفةِ الله:

ولمعرفة الله لذةٌ لا تعدُلها لذةٌ كما قرَرَها أربابُ السلوك؛ لأنها تقود إلى محبتِهِ، والشوقِ إلى لقائهِ، والتوددِ إليه بما يُحبُه ويرضاه، فلذتهُ في إقبالِهِ عليه، وعكوف همته عليه، وابن القيم في (مفتاح دار السعادة١/ ٣٦) فسر قول النبي ﷺ: (إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقين) بأن القلب مَتى حصل لَهُ مَا يُفرحُهُ، ويَسرُهُ من نيلِ مَطْلُوبِهِ، ووصال حَبِيبه، شُغِلَ عَن الطعام وَالشرَاب)، ويضاف: بأن القلب يستغني بلذة معرفته بالله، وأنسه بهِ عن لذة الأكل؛ فإن الروح إذا شبعت شبع البدن.

وهذه القاعدة: دليلٌ على تلازمِ أعمالِ القلوب، فمعرفةُ الله في القلبِ تُورثُ الخوفَ منهُ، ولو قيل: بأن ضابط المعرفة الصحيح أن يقود إلى الخوف من الله لكان ضابطاً صحيحاً في عمل المعرفة القلبي.



القاعدة الثالثة والعشرون:

الناسُ يتفاوتونَ في أعمالِ القلوبِ، ومنازلُهم عند الله بناءً على تفاوتِ حقائقِ قلوبِهم

معنى القاعدة: أن أهلَ الإسلامِ يختلفون في أعمال قلوبهم زيادةً ونقصاً، سواءً في مجموعِ الأعمالِ القلبيةِ، أو في العملِ القلبيِّ الواحدِ؛ ونتيجةً لاختلافِهم في ذلك اختلَفتْ منازِلُهم عندَ الله في الدنيا والآخرة، وفي الجنة يكون ارتفاعهم على قدر حقائق قلوبهم، والله عدلٌ يُعطي كلَ أَحدٍ جزاءَهُ، ولا يَظلِمُ ربُكَ أَحداً.

الصحابةُ لا يَعدْلهم أحدٌ ممن جاءَ بعدَهم:

قرَرَ أهلُ السنةِ والجماعةِ أن الصحابةَ لا يعدُلُهم أحدٌ جاءَ بعدهم بناء على ما وُجد في قلوبِهم من حقائقِ الإيمان؛ وذلك أن إيمانَهم حينَ ضَعْفِ الإسلامِ، وأولِ أمرِهِ، وقلةِ أهلِهِ لا يُمكِنُ أن يحصلَ لأحدٍ بعدَهم.

وأيضاً الصحابة أنفسُهم يتفاوتون بناءً على تفاوتِهم



في أعمالِ القلوب، فأبو بكرٍ رضي الله عنه سَبَق الصحابةَ كثيراً؛ لأن اليقينَ الذي في قلبِهِ لا يمكنُ أن يصلَ إليهِ أحدٌ من الصحابةِ؛ ولهذا وَصَلَ به اليقينُ أن تَصدَّقَ بكلِ مالِهِ لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما عَجزَ عنهُ غيرُه حتى عمرَ رضي الله عنه، هذا تفاضُلُ الشيخينِ في بابِ اليقين؛ فكذلك الأبوابُ القلبيةُ الأخرى، فمن كان يَقينُهُ يقودُ للنفقةِ بكلِ مالِهِ فمحبتُهُ لله، وتوكُلُهُ أكملُ ممن لمْ يَفعل ذلك، ومن هنا كان أبو بكرٍ رضي الله عنه أفضلَ أهلِ الأرضِ قاطبةً بعدَ الأنبياء عليهم السلام.

فائدة هذه القاعدة:

هذه القاعدةُ تجعلُ المؤمنِ يَحرصُ على المسابقةِ في أعمالِ القلوب، كما تجعلُهُ يتَعلمُ فقهَ أعمالِ القلوب، فمن حازَ أَعلَى أعمالِ القلوبِ فقد فَازَ وسبق غيره، فالسبق بالقلبِ لا بالجوارِحِ.





القاعدة الرابعة والعشرون:

القلبُ يَقبلُ أعمَالَهُ ويُمكنُهُ فعلُها وهي حياتُهُ

معنى القاعدة: أن القلب من طبيعتِهِ أنه يقبلُ الأعمالَ التي طُلبتْ منه شرعاً، من التوكلِ، والرضا، والصدقِ، والإخلاصِ، واليقينِ، والصبرِ وغير ذلك، ويمكن للقلب أن يمارسَ تلك الأعمال، بل إنه إذا ذاقَها فليسَ من السهلِ عليهِ تركُها، أو التخلي عَنها، فإن الإيمانَ إذا خالَطَتْ بشاشتُهُ القلوبَ لم يعدِلْ به شيئاً.

وجودُ عوائقٍ في أعمالِ القلب بدايةَ الأمر:

هناكَ عوائقٌ تحصلُ للمؤمنِ في بدايةِ سلوكِه وعبادتِه، فيجاهد نفسَهُ على الإخلاص وتأتيهِ بعضُ الوساوسِ والشبهاتِ، والخواطر المكدرة، فإذا صبر واستعان بالله، وتفقه في أعمالِ القلوب فسرعانَ ما تنقادُ له نيتُهُ وإخلاصُهُ، وإنما تلك العوائقُ امتحانٌ من الله ليَعلمَ وهو العليمُ صدقَ

عبدِهِ والتجائهِ إليه، فعلى العبدِ ألا يستعجل الوصولَ لمنازلِ القلبِ وأعماله العالية.

فما يجدُهُ من يجاهد نفسَهُ على الإخلاصِ لله بداية منزلة الإخلاص لن يطول كثيراً؛ إذ الإخلاص في أصلِهِ محبوبٌ للقلب، موائمٌ له، والقلب يحبه، ويألفه، فالقلب السليم يكره النفاقَ ويحب الإخلاصَ.

وفائدة هذه القاعدة:

١- ألا يستعجلَ العبدُ ما يمرُ عليهِ من مجاهداتِ قلبِهِ أول الإيمان، فإن أعمال القلوب هي مشروعُ العمُرِ.

٢- أن يُكرِهَ نفسَهُ على أعمال القلوب ولو عافتها أول الأمر، فإن ذلك جهلٌ يرتفعُ لا طبعاً يستقرُ.



القاعدة الخامسة والعشرون:

سعادةُ القلب تكونُ باستغنائه بالله عن كلِ شيءٍ

لا تكملُ سعادةُ القلب، وأنسُهُ، واستقراره إلا باستغنائه بالله عن كلِ أحدٍ، فمن وجدَ الله فما ضرَهُ ما فاتَهُ بعدَ ذلك، كما أن من فاته الله لم يسدّ مكانَهُ أحدٌ، وهذا حقيقةُ (إياك نعبد)، فالحصرُ بتقديمِ ضمير الفصلِ (إياك) يفيدُ نفي كل ماعدا الله، فلا يتعلقُ القلبُ إلا بالله محبةً، وتوكلاً، ورجاءً، وخوفاً.

كيف يَستَغنِي القلبْ بالله؟

هذا من الأسئلةِ الشريفةِ - وما أقلَّها - فلا يمكنُ للقلبِ أن يستغنيَ عن جميعِ المخلوقاتِ إلا بأن يكونَ الله هو مولاهُ الذي لا يَعبدُ إلا هو، ولا يتوكلُ إلا عليه، ولا يفرحُ إلا بما يُحبُهُ ويرضاه، وعمدةُ ذلك ألا يوجد في قلبِهِ إلا الله وما والاه.

بقي أن يقال: أن من انشغلَ بالله جَمَعَ الله عليهِ قلبَهُ؛ لأن الله واحدٌ أحدٌ، ومن انشغلَ بغيرِ الله فرَّقَ الله عليه همَّهُ وشتَّتَ قلبه، فالجزاءُ من جنس العمل ولا يظلم ربُك احداً.



ومن نتائج القاعدة:

١- أن كلَ من انصرف قلبُهُ عن الله فقد تَعلَّق بغيرِ الله ولا بُدَّ، ويكونُ تعلقُهُ على قدرِ انصراف قلبِهِ عن الله، فلا بد للقلب من تَعَلُّقٍ، وقد خُلق القلبُ ضعيفاً مُفتقراً لغيرِهِ؛ ولهذا متى ما تعلق القلبُ بالله لم يأنسْ إلا بهِ، ولم يُرد إلا وجهه، وأصبحَ يعاملُ الخلقَ ابتغاءَ وجهِ الله، فيحسن إليهم رجاء ثواب الله لا رجاء مكافأتهم، وهذا لا يكون إلا لمن توجه إلى الله بجميع إرادة قلبه.

٢- دلت القاعدةُ على أن في الله غنىً لمن استغنى بهِ، ففي الله غنى عن كلِ موجودٍ، وبه عوضٌ عن كل مفقود، فمن وَجَدَ الله ماذا فقد؟ ومن فَقَدَ الله ماذا وَجَد؟ فلا يليقُ بالعبدِ إلا استغناؤهُ بسيدِهِ.

٣- دلت القاعدةُ على أن العبدَ فقيرٌ مفتقرٌ لله، وبهذا كمالُ العبدِ، لقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ فلحظةُ ضلالِ الإنسانِ هي لحظةُ استغنائهِ، فتكونُ لحظةُ هدايتِهِ هي لحظةُ افتقارِهِ.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة السادسة والعشرون:

أصولُ أحوالِ القلوبُ أربعةٌ

مما يعينُ على فقه أعمالِ القلوب معرفةُ أقسامِها وأنواعِها، وقد جاء في حديث أبي سعيدٍ الخدري مرفوعاً: (القلوبُ أربعةٌ: قلبٌ أجرد أ فيه مثلُ السراجِ يزهرُ، وقلبٌ أغلف مربوطٌ على غلافه، وقلبٌ منكوس، وقلبٌ مُصَفح، فأما القلبُ الأجرد: فقلبُ المؤمن سراجُهُ فيه نورُهُ، وأما القلبُ الأغلفُ: فقلبُ الكافر، وأما القلبُ المنكوس: فقلبُ المنافق عَرف ثم أنكر، وأما القلبُ المُصَفَّح: فقلبٌ فيه إيمانٌ ونفاق) رواه أحمد ٣/ ١٧، وقال ابن كثير: إسنادٌ جيدٌ حسنٌ.

القلب الأجرد:

أي متجردٌ عما سوى الله؛ فيه سراجُ الإيمانِ يفرقُ لهم بين الحقِ والباطل، ولفظ التجردِ دليلٌ على خلوهِ مما سوى نورِ الله، فلمَّا خلا استنار، مما يدل على أن تطهيرَ القلبِ ينيرُهُ، فالشهواتُ والشبهاتُ ظلمةٌ تعيق نور القلب.



ما سر وصفه القلب بكونه (يزهر) ولم يقل: ينير؟

وإنما وُصِفَ القلب بقوله: (يزهر) ولم يقل: يُنير؛ إشارةً إلى أن نورَ القلب فيه صفتان: الصفاء والتلألؤ، فالصفاءُ ليعرفَ به الحقَ، والتلألؤ ليُحرقَ به الشبهات والشهواتِ.

القلب الأغلفْ:

أي عليه غلافٌ يغطِيهِ فلا يصلُ إليه نورُ الإيمانِ والهدى، وهذا يقابلُ النوعَ الأول من القلوبِ، وبهِ نستفيدُ أن التغليفَ أشد أمراضِ القلوبِ؛ لأنه جعله مقابل القلب المزهر، فكما أن الإزهارَ أعلى درجات الأعمال فالتغليف أشد العقوبات، ولا يمكنُ لهذا النوع أن يهتديَ إلا أن يسعى بزوالِ التغليفِ ليصلَ النور إليه.

القلب المنكوس:

وهو الذي قلبَ موازينَ الحق، فعرفَ الحقَ لكنَّهُ أنكرَهُ فانتكس، وجعل الحق باطلاً والباطلَ حقاً، وسُمي منكُوساً لأنه لما عرف الحق نَكَسَ ورجع إلى باطلِهِ كما قال: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ فالتنكيسُ لا يكونُ إلا بعدَ إقرارٍ، وهذا حالُ المنافق، فإنه تركَ بعدما عَرفَ.

القلب المصفح:

أي العريضُ الذي له وجهانِ أحدهُما للكفرِ والآخرُ للإيمانِ، وقيل: المُضجَع، وهو تفسيرٌ صحيحٌ لا يختلفُ عن الأولِ؛ لأن صفحة السيف أعرض من حدِّهِ فإذا أُضجِعَ السيفُ فقد عُرِض، ووصفه بالمُصفح دليلٌ على ميلهِ؛ فكأن القلب كان مستقيماً فأضجعه الذنوب، والاضطجاعُ علةٌ كما أن الذنوبَ علةٌ ، وتحت كل نوع من هذه الأنواع درجات لا يعلمها إلا الله.



القاعدة السابعة والعشرون:

المسلمونَ ينقسمونَ بناءً على أعمالِ القلوب إلى ثلاثة: ظالمٌ ومقتَصدٌ وسابقٌ

قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ يقسمُ الناسَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ من حيثُ أعمالِ القلوب:

أ) الظالمُ لنفسِهِ: وهو الذي يتركُ بعضَ الواجباتِ ويفعلُ بعضَ المحرمات.

ب) المُقتصِدُ: وهو الذي يُؤدي الواجباتِ ويتركُ المحرمات.

ج) السابقُ بالخيراتِ: وهو المُتقربُ بما يَقدرُ عليه من فعلِ الواجبات والمستحبات، ويتركُ المحرماتِ والمكروهاتِ وفضولِ المباحات.

فكما أن أعمالَ الجوارح تنقسمُ إلى تلك الأقسام، فأعمالُ

القلوبِ كذلك، ومن تَرَكَ المحرماتِ في أعمال الجوارح فيشملُهُ تركُ محرمات القلوب كالغلِ، والحسدِ، والكبرِ، والاحتقارِ، والمؤدي للواجباتِ والمستحبات من أعمالِ الجوارحِ يشمله أيضاً أداءُ أعمالِ القلوب الواجبةِ والمستحبة كالإخلاصِ والمحبةِ وغيرها.







القاعدة الثامنة والعشرون:

طاعاتُ الجوارحِ تُؤثرُ في حياةِ القلبِ

معنى القاعدة: كما أن القلبَ يُؤثرُ على الجوارحِ فيُورثُها الطاعاتِ أو المعاصي؛ ففعلُ الطاعاتِ في الجوارحِ يُؤثرُ هو الآخرُ على القلب، وهذه القاعدةُ فرعٌ عن العلاقةِ الوثيقةِ بين القلب والجوارح، لكنها هذه المرة من جهةِ الجوارح، إذ قد يعتقدُ البعضُ أن الأثرَ كلُّهُ للقلبِ من غير أن تؤثرَ أعمالُ الجوارحِ عليهِ، وهذا تصورٌ ناقصٌ، فكلاهُما يؤثرُ على الآخر.

ويقرر ابن تيمية هذه القاعدة بقوله: (ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضاً تأثيرٌ فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه) الفتاوى٧/ ٥٤١.

ويدل لهذه القاعدة: قوله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا كتب

عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) فجعلَ الصيامَ وهو من أفعالِ الجوارحِ مُحققاً للتقوى وهي من أعمالِ القلب، وأتى بحرفِ الترجِّي (لعل) لأن ذلك يُرجَى من غيرِ جزمٍ.

آثار غض البصر على القلب:

وعقدَ ابن القيم فصلاً في أثرِ غضِ البصر - عن حرماتِ الله - على القلبِ، ومنها: يورثُ أُنسَ القلبِ، ويُقَوِّي القلبَ، ويُورث الفراسة، وجعل كتابه (الوابل الصيب) عن أثر الذكر على القلب، وعقد فصلاً عن آثار الذنوب على القلوب والأبدان في كتابه (الجواب الكافي).





القاعدة التاسعة والعشرون:

الذنوبُ تُؤثرُ على أعمالِ القلبِ مرضاً أو موتاً

لما كانت الطَاعاتُ تُؤثرُ على حياةِ القلب؛ فإنَّ المعاصي والذنوبَ تُؤثرُ في القلبِ مرضاً أو موتاً، وإن كان القلبُ هو الأصلُ، لكنَّ ذلك لا يَعني عدم تأثرِهِ بها، كما قال تعالى: (كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون).

القلبُ مَلكٌ والأعضاءُ جنودٌ، والملك يستفيد من جنوده:

لَّما كان القلبُ كالملكِ للأعضاء؛ فإنَّ صلاحَ الملكِ يعودُ على الرعية؛ وكذلك المَلكُ يستفيدُ من صلاحِ الرعيةِ فبينهُما ترابطٌ، وقال ابن تيمية رحمه الله: (أعمال الجوارح تؤثر في القلوب، كما أن أعمال القلوب تؤثر في الجوارح، فأيهما قام به الكفر تعدى حكمه للآخر). الصارم٣/ ٩٧٦.

وقد عقدَ ابنُ القيم في الجوابِ الكافي فَصلاً عن آثارِ الذنوب والمعاصي وجعلَ جزءً كبيراً منها مختصاً بالقلبِ، ومن ذلك:

الوحشةُ التي في الصدر، وظلمةٌ في القلب، وتوهنُ القلب، والطبعُ على القلب، وذهابُ حياءِ القلب، وإضعاف عزيمة القلب، وإعماء بصيرةِ القلب، وغير ذلك.

تلخيصك للقاعدة:





القاعدة الثلاثون:

لا عبرةَ بالخواطرِ والوساوس مالم يَسترسلْ معها الإنسانُ

معنى القاعدة: أن الوساوسَ التي تأتي في أعمالِ القلوبِ مما يكرهُهُ المؤمنُ لا عبرةَ فيها، مالم يَسترسلْ معها المؤمنُ ويَرضَ بها، وهي من عداوةِ الشيطانِ للمؤمن.

الوساوس هي: ما يلقيه الشيطان في القلب بخفاء، وقد اشتكى منها الصحابة الكرام للنبي ﷺ فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، فقال عليه السلام: (ذاك صريح الإيمان). رواه مسلم (١٣٢).

ما سبب كون الوساوس القلبية صريح الإيمان؟

وسببُ وصفهِ لهم بأنهُ صريحُ الإيمان؛ لأنه اقترنَ مع وساوسِهم كراهتُهم وبغضُهم لهذه الخواطرِ، وهذا لا يُوجد في قلبِ المنافق، فقولهم: (إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به) دليلٌ على كراهتِهم لها، وبغضِهم وعدمُ استرسالهم.

كثرة الوساوس في أعمال القلوب في أول طريق العبادة:

وتكثر الوساوسُ في أعمالِ القلوب: خاصةً في بدايةِ طريقِ العبادة، إذ كان الشيطانُ يَرضى من القلبِ إعراضُه عن الله فلا يُوسُوس له، فلما اتجَهَ لربِهِ حاولَ أن يَصدَّه بإشغالِهِ بالوسوسة.

ومن تلك الوساوس:

- اتهامُ النفسِ بالنفاقِ، مع أن العبدَ كارِهٌ لذلك، ومجتهدٌ في عبادتِهِ.

- وكذلك التعلقُ وعشق الصُورِ والمردانِ ومحبةُ غيرِ الله، مع أن المؤمنَ يرى من نفسِهِ كراهيةُ ذلك ومدافعتِهِ، لكن الشيطان يُصَدِّقُ له أوهامَهُ.

- وكذلكَ ضعفُ اليقينِ بالله وشرعِهِ، مع أنه يجدُ في قرارةِ نفسِهِ ثقته بالله وإيمانه به.

- ومن أكثر الوساوسِ اتهامُ النفسِ بالرياءِ حتى وصلَ الأمرُ بأن يقطعَ العبدُ بعضَ الأعمالِ الصالحةِ ليَسلمَ من شبهةِ الرياءِ، فقطعَهُ الشيطانُ عن الاستمرارِ، ولم يجد



الراحةَ التي وعدَهُ بها، كما هي عادة الشيطان في إخلافِ وعدِهِ.

- **وعلاجُ الوساوسِ يكونُ بما يلي:**

١ـ الفرحُ بها؛ لأنها علامةُ إيمانٍ كما في الحديثِ السابق.

٢ـ مقاومتُها والثباتُ أمامَها؛ لأنها أضعفُ أسلحةِ إبليس، كما في رواية: (الحمد لله الذي ردَّ كيدَهُ إلى الوسوسةِ).

٣ـ الصبرُ على حرارتِها وألمِها؛ لأنها ابتلاءٌ، وكما أن حرارة البدن مرضٌ يكفرُ الخطايا، فحرارةُ أَلَـمِ القلبِ تُكفِّرُ كذلك.

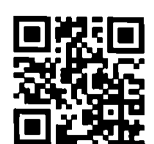
٤ـ الاستمرارُ على كراهيتِها وبغضِها، وهذا هو العبوديةُ الخاصةُ بها، فيُري الله من نفسِهِ كراهتَها.

٥ـ مدافعتُها ومجاهدتُها، وهو مأجورٌ على ذلك، وله أجرُ جهادِ النفس.

٦ـ كتمُها قدر استطاعتِهِ فسرعان ما يعودُ الشيطانُ خاسراً؛ لأنه أرادَ تحزينَ المؤمنِ فلم يفلح.

٧ـ الاستمرارُ في أعمالِهِ القلبيةِ وأعمالِ الجوارح؛ فاستمرارُهُ يجعلُهُ يترقَّى في منازلِ الإيمانِ ولا يقفُ عند مقاماتِهِ الأولى.





القاعدة الحادية والثلاثون:

كلُ وقتٍ لهُ ما يناسِبُهُ من أعمالِ القلوب

معنى القاعدة: أن أعمالَ القلوب مفروضةٌ في كل وقتٍ ولحظة، وهذا يستدعي من المؤمنِ أن يُدركَ العملَ القلبي الذي يناسبُ حالَهُ، وكذلك في كلِ فترةٍ زمنيةٍ تشتدُ الحاجةُ إلى العنايةِ بعملٍ قلبي أكثرَ من غيرِه، ففي أزمنةِ الفتنِ تشتدُ الحاجةُ لليقين، وفي الرخاءِ تشتدُ الحاجةُ للزهد وهكذا.

وهذه القاعدة تدلُ على أهميةِ تَعلمِ علمِ أعمالِ القلوب؛ لأنَ الإنسانَ لهُ في كلِ لحظةٍ عملٌ قلبيٌ، ومن الأعمال القلبيةِ ما يستمرُ حياةَ العبد لا يمكنُ الاستغناءُ عنه لحظةً واحدة.

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن: (الرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبله والرضا بعده وكان عليه السلام يقول في الصلاة: اللهم إني اسألك الرضا بعد القضاء) التحفة العراقية، ص٤٦.

ولكي تتصور القاعدة بسهولة فانظر إلى أعمال الجوارح، فكما أن الصلاةَ في بعضِ الأوقاتِ تحرمُ ويكون غيرُها من العباداتِ أولى منها، وفي أوقات الفتن يكونُ الاعتزالُ أولى العبادات فكذلك الحال في أعمالِ القلبِ،ففي بعض الأوقات يكون عملٌ أولى من عملٍ، ويفوز بذلك أهل العلم العارفين أحكام الشرع فكذلك الحال في أعمال القلوب، **فمثلاً:**

إذا أراد العبد فعل أمرٍ فإنه يحققُ منزلةَ التوكلِ على الله بشروطِها، ثم يستعينُ الله بالصبرِ على ما فوَّض أمرَهُ بهِ، ثم يجاهدُ نفسَه على الرضا بما كتبَهُ الله، والمنزلة الواحدة لها درجات يَتعبدُ فيها العبدُ لربهِ.





القاعدة الثانية والثلاثون:

زكاةُ القلبِ مثلُ نماءِ البدنِ

معنى القاعدة: أن القلب يحتاج للزكاة والطهارة كما يحتاج البدن للنماء، وقد قرَّر ذلك ابنُ تيميةَ رحمه الله.

معنى نماءُ القلب:

ونماءُ القلبِ معنى زائدٌ على طهارتِهِ من الذنب، وقد فَرَّقَ الله بينهما بقولِه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فذكر فوائد أخذ الزكاة: الطهارةُ والزكاةُ، وزكاتُه تقومُ على أمرينِ هما: تحصيلُ غذائهِ، ودفعُ ضررِهِ.

فتحصيل غذاء القلب يكون:

بإمداد القلبِ بما يغذيهِ ويقويهِ ويحييهِ، ويجعلُهُ صالحاً مستقيماً، وجماعُ ذلك الأعمالُ الصالحةُ للقلبِ والجوارحِ التي بيَّنها الوحيُ، ورأسُها التوحيد.

ودفع ضررِ القلبِ يكونُ:

بحمايةِ القلبِ عن مفسداتِهِ،وما فيه هلاكه من ذنوبِ القلوبِ والجوارح، وعمادُ دفع الضررِ يكونُ بملازمةِ

الاستغفارِ؛ لأنه يزيلُ فسادَ القلبِ، ويُذهبُ أثرَ الذنبِ؛ ولهذا كان أكثر الأنبياء إذا ذكروا التوحيد لأقوامِهم ذكروا معه: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾.

بعضُ الأغذيةِ نافعةٌ وبعضُها ضارٌّ:

وكما أن بعضَ أغذية البدنِ أكثر نفعاً من غيرها فكذلك أغذيةُ القلبِ بعضُها أنفعُ من بعضٍ، وأكثرُها نفعاً إفرادُ الله بالتألِهِ والتذلُّلِ.

وكما أن بعضَ الأغذيةِ مُهلِكٌ للبدن فكذلك بعضُ ما يُدخلُهُ العبدُ على قلبِهِ قد يكونُ فيه هلاكُهُ كما قال: ﴿ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾.







القاعدة الثالثة والثلاثون:

القلبُ إذا تَعلقَ بشيءٍ صارَ عبداً له

معنى القاعدة: أن القلبَ إذا تعلقَ بشيءٍ وأحبَهُ واعتمدَ عليهِ، فإنه يصير عبداً له ذليلاً خاضعاً ليحصلَ على مرادِهِ منهُ.

وسِرُ ذلك: أن الله لما خلقَ القلبَ جعلَهُ ضعيفاً لا بدَ له من متعلقٍ يتعلقُ بهِ، يُعلقُ عليه أمورَهُ، ويعتمدُ عليهِ ويفوضُ أمرَهُ إليه، وهو بهذه الأفعالِ يخضعُ لهُ ولا بُدَّ، وعلى هذا فلا يليقُ أن يتعلقَ القلبُ الضعيفُ بمخلوقٍ ضعيفٍ، فيكونُ تعلقُهُ بالله ضرورةً له وليسَ مجرد اختيار.

من تعلق على غير الله خُذِل من تلك الجهة:

يقررُ علماءُ السلوكِ أن كلَ من تعلقَ بغيرِ الله خُذل من تلك الجهةِ التي ظنَّ نفعُها له، فمن طلبَ النصرَ من غير الله وكلَهُ الله إلى من اعتمدَ قلبُهُ عليه في طلبِ النصرِ فيخذل لأن النصرَ من الله، ومن أحبَ غير الله محبةَ تعلقٍ عادَ حبُهُ

عَذاباً عليه، وأذلَهُ الله لمن طلبَ محبتَهُ، وهكذا بقية الأعمال، ومتى وقعَ القلبُ في التعلقِ بغيرِ الله صارَ أسيراً لهُ وعبداً لهُ وإن كان حراً، وهذا عقوبتُهُ في الدنيا.

تلخيصك للقاعدة:





القاعدة الرابعة والثلاثون:

افتقارُ القلبِ لله رأسُ أعمالِ القلب

ودليلُها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والألف واللام في (الناس) تفيد العموم، وحقيقة الافتقار القلبي -كما قرره ابن القيم- أن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامةً إلى الله تعالى من كل وجه.

أيهما أفضلُ الافتقارُ مع التخليطِ أم الطاعاتُ مع إعجابِ النفسِ؟

ودوامُ الافتقارِ إلى الله مع التخليطِ في الأفعالِ ما بين الطاعاتِ والمعاصي خيرٌ من طاعاتٍ مع إعجابٍ بالنفس؛ وذلك لفضلِ الافتقارِ ووقوعِهِ الموقعَ الحسن عندَ الله، وقربُ عفو الله لصاحبِهِ، وشدةُ ذنبِ الإعجابِ بالنفسِ.

الافتقار أقرب الطرق إلى الله:

ويقررُ علماءُ السلوكِ أن الافتقارَ إلى الله والتذللِ له هو أقربُ الطرقِ التي توصل إلى الله؛ لأن العبدَ في افتقارِهِ لله يتخلصُ من حُظوظِ نفسِهِ ويَتبرأُ من حولِهِ وقوتِهِ، فهو الذي يشهدُ ألا إلهَ يعتمدُ عليه ويُحب إلا الله.

ولا يمكن الافتقار إلى الله إلا بالزهد عما عداه، فيزهد بالحرام، والمكروه، وما لا يقربُهُ إلى الله، ولا يَرى لنفسِهِ فضَلاً، ويجعلُها في محلِ التهمة.





القاعدة الخامسة والثلاثون:

خُطواتُ القلبِ في أعمالِه

كلُ عملٍ يعملُهُ القلبُ فإنه يمر بعِدَّةِ خطواتٍ تبدأ من القلبِ وتنتهي إلى الجوارحِ، وقد ذكر ابنُ القيم عدةَ خطواتٍ لذلك وهي:

١- الخَاطرةُ: وهي أولُ خطواتِ الشيطان، وهي الشرارةُ الأولى، ومن هنا اعتنى السلفُ بحفظِ الخواطرِ؛ لسهولةِ حفظِها.

٢- ثم الفكرةُ: وهي إعمالُ الذهنِ في أمرٍ ما.

٣- ثم الشهوةُ: وهي نتيجةُ تصديقِ النفسِ ما ينقدحُ في الذهن، وللنفسِ طرقٌ في إيهامِ العقلِ لتحصيلِ شهوتها.

٤- ثم العزيمةُ: وهي صدقُ الإرادة، وتُنَزَّلُ منزلةَ الفعلِ، ومن هنا كان من دعاءِ النبي ﷺ: «**وأسألكَ العزيمةَ على الرشد**».

٥- ثم الفعل: وهو نتيجةُ العزيمةِ، فإن العزيمةَ متى وُجدت أنتجتِ الفعلَ ولا بُدَّ.

٦- ثم العادة: وهي آخرُ الخطواتِ استحكَاماً وشدَّة، وبه تكونُ النفسُ قد سيطَرت على العقلِ فأطاعها.

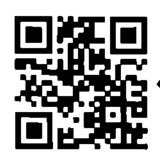
معالجةُ خطواتِ الشيطانِ في أعمال القلوب:

ومعالجة الخاطرةِ ومدافعتُها أسهلُ من مدافعةِ الفكرةِ، ومدافعةُ الفكرة أسهلُ من مدافعةِ الشهوةِ، والشهوةُ أخفُّ مدافعةً من العزيمةِ وهكذا، وكلما تقدمَ القلبُ خطوةً كان علاجُ ذلك أشدَّ، فإذا انتقلَ الأمرُ من القلبِ إلى الجوارحِ وصارَ الأمرُ عادةً عند الإنسان فإن انتقالَهُ عنه يحتاجُ إلى قوةِ إيمانٍ وقوةِ إرادةٍ، وقد كان الأمر أسهلَ في بدايتِهِ، لكن ذلك عقوبةٌ من فرَّط وتَهاون بالعلاج أول الأمر.

ولمَّا فهمَ السلفُ ذلك اعتَنوا بحفظِ خواطِرهم، ولا يُمكنُ تخليةُ الذهنِ من الخواطرِ، وإنما سخَّروا خواطرَهُم في مرضاةِ الله؛ ولهذا كان عمرُ بن الخطاب تتزاحمُ خواطرُ الطاعاتِ حتى في صلاتهِ، وهي مرحلةٌ متقدمةٌ من زكاةِ القلب وتعلقِهِ بربهِ ومحابهِ.

تلخيصك للقاعدة:





القاعدة السادسة والثلاثون:

جزاءُ أعمالِ القلوبِ من جنسِها أحياناً

معنى القاعدة: لما كانَ الله مجازٍ كلَ عاملٍ بعملِهِ، وكانَ ذلك يشملُ أعمالَ القلوب، فإنَّ جزاءَ أعمالِ القلوبِ يكونُ من جنسِ ذلك العمل أحياناً، وهذا عائدٌ للقاعدةِ الشرعيةِ: الجزاءُ من جنسِ العمل.

وأعمالِ الجوارحِ يُجازي الله عليها في الدنيا والآخرة جزاءً هو من جنسِها؛ فالله يحسنُ للمحسنِ، ويُعطي المتصدقَ، فكذلك الحالُ في أعمالِ القلوب، فمن عمَّر قلبَهُ بذكرِ الله ذَكَرَهُ الله، ومن وَقَّر الله وهابَهُ جعلَ الله له هيبةً في قلوبِ الخَلق، ومن أَنِس بالله وذكرِهِ آنسَهُ الله في خلوتِهِ، ومن عَظّمَ أوامرَ الله عظَّم الله أوامرَهُ، ومن غارَ على حُرمات الله غار الله عليه، فإذا أصابَهُ شيءٌ أفسدَ عليه قلبَهُ فإن الله يغارُ على ذلك القلبُ الذي عُمِّر بالغيرة على حرماتِهِ.

ولما كان جزاءُ الله أحياناً يكونُ بنقيضِ الفعلِ كمن تَكَبَّر

أذلَهُ الله، ومن تواضَعَ رفعَهُ الله، ومن عَفا أعزَّه الله، وهذا بابٌ عظيمٌ يرجعُ لمشيئةِ الله واختيارِهِ.

وفائدةُ هذ القاعدة:

أن يعرفَ العبدُ مكانَ الخللِ القلبي الذي عُوقب بِهِ، فعليه أن ينظرَ إلى العقوبةِ التي حلَّت به ويبحثَ عن جنسِهَا من أعمالِ القلوب، فمن تسلَّطَ عليه عدوهُ أو سقطت هيبتُهُ فلينظرِ إلى هيبةِ الله في قلبهِ وليراجع نفسَهُ فيها، ولْيَتُبْ لله من سقوطِها من قلبِهِ، وذلك كمن عُوقبَ في مالِهِ فعليه أن يتوبَ من الذنوبِ وبالأخصِ ما يتعلقُ بالربا أو الرشوةِ أو جنسِهِما لأن عقوبتَهُ جاءت من هذه الجِهة.

تلخيص للقاعدة:





القاعدة السابعة والثلاثون:

أعمالُ القلوبِ تُورثُ الجدَّ والعَمل

معنى القاعدة: أن من حقَّقَ أعمال القلوب في قلبِهِ فإنها تورثه الجديةَ في العملِ، والنشاطَ والحركةَ في الحياة، فإنَّ المحبَ الصادقَ في حبِهِ هو أكثرُ الناسِ عملاً لدافعِ المحبةِ في قلبِهِ، والمتوكلُ الصادقُ لا يفترُ عزمُهُ، والمستعينُ بربهِ لا يتوقفُ عندَ عائقٍ لكمالِ استعانتِهِ بالله، فأورثتهُ أعمالُ القلوبِ عزيمةً ونشاطاً.

ويُخطئُ من يظنُ أن العنايةَ بأعمال القلوب تورثُ الاعتزالَ والخمولَ والانفراد.

من وَجَدَ قوةً في أعمالِ القلبِ في حالٍ دون حالٍ:

وقد عقدَ ابن القيم (الفوائد، ص: ٤٣) مقارنةً في مرتبةِ الأنسِ بالله واختلافِ أحوالها، وقَسَّمَها حَسَب اختلافِ الناسِ فيها، وأَعطَى كلَ واحدةٍ درجتَها، وهي كالتالي:

١- من فقد أُنسَهُ بالله بين الناسِ ووجده في الوحدةِ: فهو

صادقٌ ضعيف، صادقٌ لأنه وَجدَ الأنسَ بالله، لكنهُ ضعيفٌ لأنه لم يجِدْهُ إلا حالَ خلوتِهِ.

٢- **ومن وجدَهُ بين الناس وفقدَهُ في الخلوةَ: فهو معلولٌ؛** لأنه وجدَ أنسهُ بالله ونشاطَهُ في عبادتِهِ إذا كان مع الناسِ، وهذا فيه شُبهةٌ أن نشاطَهُ بسببِ رؤيةِ الناس فهذا الذي أَعَلَّهُ.

٣- **ومن فقدَهُ بين الناسِ وفي الخلوةِ فهو: ميتٌ مطرودٌ،** لفقدِهِ الأنسَ بالله.

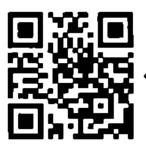
٤- **ومن وجدَهُ في الخلوة وفي الناسِ:** فهو المحبُ الصادقُ القويُّ في حالِهِ؛ لاستواءِ منزلةِ الأنسِ بالله عندَهُ في الحالتينِ، وهذا دليلُ قوةِ أعمالِ قلبِهِ.

فنلاحظُ أن منزلةَ الأنسِ بالله تكونُ أفضلُ ما تكونُ حينما يجدُها الإنسانُ وهو يخالطُ الناسَ ويرشدُهم ويعلمُهم وينفعُهم وينصحُ لهم، وقل مثلَ ذلك في منزلةِ محبةِ الله والتوكلِ عليه واليقينِ به، فكل من وجدَها في حالِ الخلوةِ وحالِ اجتماعِهِ بالناسِ فهذا دليلُ كمالِهِ وقوةُ أعمالِهِ وصدقِ عبوديته، فإن العبوديةَ ليست في حالٍ دونَ حالٍ، لأن الله مع العبدِ حالَ خلوتِهِ وحالَ خُلطتهِ.

أثرُ أعمال القلوبِ على الأخلاقِ والتعاملِ:

وقرَّر ابنُ القيم أن أعمال القلوبِ لها أثرٌ حتى على حُسن الأخلاقِ؛ فمن اعتنى بأعمالِ قلبِهِ فصَدقَ في محبتِهِ لله وتعلقِهِ به عاملَ الناسَ بما يأمرُهُ به محبوبُهُ من العفوِ والصفحِ والإحسان، ومن تَوكَّل على الله واعتمدَ عليهِ وصَدَقَ في ذلك لم يُوجه لَومَهُ للناسِ على أمرٍ لم يكتبْهُ الله له بعدَ بذلِ أسبابِهِ، ومن كان زهدُه شرعياً لم ينافسْ الناسَ على دنياهم، كلُ ذلك لئلا يفسد قلبُهُ، ولئلا ينشغل عن مرادِهِ الأعلى، فإن لهُ مراداً هو أعلى من مرادِ الناس؛ إذ مرادُهُ رضا الله، فانظر كيف جَرَّت أعمالُ القلبِ على صاحِبِها حسنُ الأخلاقِ والتعامل، ولا عَجب من ذلك فمن أَحسنَ معاملتُهُ مع ربِهِ أحسنَ الله معاملتَهُ مع الناسِ.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الثامنة والثلاثون:

القلبُ لهُ اجتماعٌ وتَفَرُّقٌ

معنى القاعدة: أن القلبَ له اجتماعٌ وافتراقٌ، فيجتمعُ في طلبهِ وإرادتِهِ على مطلوبٍ واحدٍ، ويعانُ على تحقيقِ كثيرٍ من أعمالِ القلب، ويفترقُ أحياناً فيتشتتُ في همومِهِ ومطلوبهِ، ولكلِ حال يمرُ بها القلبُ من الاجتماعِ والافتراقِ عبوديةٌ، ففي حالِ اجتماعِهِ يزيدُ من أعمالِ القلوبِ والطاعات، وفي حالِ الافتراقِ عليه أن يُجاهدَ نفسَهُ ألا يَخرُجَ إلى كبيرةٍ أو بدعةٍ.

واجتماعُ القلب يجعلُهُ علماءُ السلوك مقصوداً في غاياتِ بعضِ الأحكامِ الشرعية فيُعللونَ بهِ، فمثلاً ذكرَ ابنُ القيم سببَ تفضيلِ صلاةِ الليلِ على النهارِ بسببِ عدمِ إطلاق البصر وبالتالي يكونُ أدعى لاجتماعِ القلبُ، لقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ ويرادبالمواطأةِهي اجتماعالقلبمعاللسان

في قراءة القرآن في صلاة الليل. (بدائع الفوائد١/ ٧٧).

وعقدُ التسبيحِ بالأصابعِ؛ لأنه يعينُ على اجتماعِ القلبِ مع الجوارحِ.

لا يجتمع القلب شيء مثل اقباله على الله:

ولا يجمعُ القلب شيءٌ مثل الإقبالِ على الله، والانقطاعِ له، والتبتل، وجمعُ القلب هو: جمعُ إرادةِ القلبِ وطلبُهُ على الله وما يريدُهُ الله، فلا يَسعى إلا لتحقيقِ مرضاةِ الله، ولا يريدُ إلا ما يحبُهُ الله.

مشتتاتُ القلوبِ المعاصرة:

ويجب الحذرُ مما يفرِّق القلبَ ومن ذلك: كثرةُ الهمومِ والمشغلاتِ عند العبد، والهَمُّ فيما ضمنَهُ الله كالرزق مثلاً، وعدمُ الرضا بما قَسَمَهُ الله لك بعدَ بذلِ الأسباب.

وفي الواقع المعاصرِ زادت مشتتاتُ القلبِ ومفرقاتهُ أكثرَ من ذي قبل، فكلُ ما حولَنا يُشتتُ القلبَ بين أوديةِ الدنيا، ومن سَلَكَ وادياً منها تَفتَّحت له شعابٌ ومغاراتٌ

وكهوفٌ ودهاليزٌ فضاعَ الوقتُ، وفسدَ القلبُ، وضعفت الجوارح، وغفلَ عن الآخرة. وهذا يستدعي بذلُ الوسعِ والطاقة في حفظِ القلب وجمعِهِ، ومعقدُ ذلك: إخلاصُ الدين لله وحدَهُ، فيُخلصُ العبدُ في كل أفعالِهِ وأقوالِهِ وظاهرِهِ وباطنِهِ لله، وأن يتخفف من الهموم، وألا ينشغل بالأمر قبل حينه، وأن يستعيذَ بالله من أماني الشيطانِ وأكاذيبهِ في الفقرِ والفحشاءِ، فعند ذلك يجتمعُ عليه قلبُهُ.





القاعدة التاسعة والثلاثون:

خرابُ القلب يكونُ بغفلته وأمنه، وعمارتُهُ تكونُ بالذكرِ والخشيةِ

هذا وجه آخر يُبينُ أصولَ خرابِ القلبِ ويرجِعُها إلى أمرينِ هما:

١- **الغفلةُ**: وهي سلاحٌ من أسلحة الشيطان، وأشدُّ مراتبِها الغفلةُ عن الآخرة، كما قال: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، ونهى نبيه عليه السلام أن يكون منهم فقال: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

والشيطانُ جاثمٌ على قلبِ المؤمن أبداً فإذا غَفَلَ عن الذكرِ أَلقى إليه وساوسَهُ وأمانيهِ ونفخَهُ ونفثَهُ، فإذا ذكرَ الله خَنَسَ وانضَمَّ، فإذا كان العبدُ كثيرَ الذكر فلا يَملُ الشيطانُ من مراقبتِهِ فمتى ما غَفَلَ ولو للحظةٍ واحدةٍ أصابَ منهُ، وهذا يبينُ شدةَ العداوةِ بيننا وبين الشيطان، هذا حالُ عامرِ القلبِ بالذكر، أما الغافلُ فقد عبَّر ابنُ القيم بقوله: (التقم الشيطانُ قلبَهُ) وحسبُكَ بذلك سوءً.

وقد كتبَ الله على ابنِ آدمَ حَظهُ من الغفلةِ ولا بُدَّ، وفتحَ له بابَ الذكرِ والاستعانةِ، فالذكرُ حصنٌ والغفلةُ فتحةٌ في ذلك الحصن، فإن زادت دخلَ منها العدوُ، ثم الجُهدُ الشديدُ في إخراجِهِ.

وأشدُّ ما يكونُ من أثرِ الغفلةِ أنها لا تعينُ من حولَكَ على ذكرِ الله، فالمؤمنُ غريبٌ عند الغافلين، فلا يجدُ العبدُ ما يعينُهُ على استمرارِ ذكرِهِ، وهذا من تَعدي أثرَ الغفلةِ من قلبِ الغافلِ إلى الناسِ حولَهُ.

وعلاجُها: بكثرةِ الذكرِ، ومجاهدةِ النفس على كثرته، وقد سُمي الشيطان خَناساً؛ لأنه يَختفي إذا ذُكر الله.

٢- **الأمنُ**: بأن يأمنَ عذابَ الله ومكرَهُ، فمن أمنَ عذابَ الله فقد خَرِبَ قلبُهُ، وقد مَدَحَ الله المؤمنينَ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾، والأمنُ يورثُ العُجبَ بالعملِ وهو يُحبطُ الثوابَ، ولا يَعني ذلك إساءةَ الظنِ -فإن حسنَ الظن إيمانٌ- إنما يعني اليقظةَ والحذرَ.

وعلاجُ الأمنِ يكونُ: بالخوفِ من الله، فمن عَرَفَ الله فلا بُدَّ أن يَخافَهُ.



ويقابلهما أمران:

- ذكرُ الله: بمعناه العام بألا يتكلم إلا فيما يُرضي الله، فكلامُهُ لله وفي الله وعن الله.
- الخشيةُ: وهو الخوف من الله بعلمِ اسمائِهِ وصفاتِهِ.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الأربعون:

العلمُ بالله هو المؤثرُ في حياةِ القلبِ

العلمُ بالله هو: العِلْم بأسمائه وصفاته، وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفةَ الله، وخشيتهُ، ومحبتهُ، وهيبته، وإجلاله، والتبتل إِلَيْهِ، والتوكل عليه، والرضا عنه، والاشتغال به دون خلقه، ويتبعُ ذلك العِلْم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكذلك العلمُ بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبه وما يكرهه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فمن **جمع هذه العلوم فهو العالم حقاً**.

وينقسم أهل العلم فيه إلى نوعين:

١- **العالمُ بالله وبأمرِهِ**: فهذا أفضلُ الأقسام، وهم ورثةُ الأنبياءِ كالعلماء الربانيين الراسخينَ.

٢- **العالمُ بالله**: فهذا أقلُ درجةً من السابق، وهم العارفون عند السلف وهم أقل درجة من الحسن ومالك وأحمد



بن حنبل وغيرهم.

٣- **العالِم بأحكام الله:** فهذا أقلُّ الأقسام إذا فاته نصيبهُ من العلمِ بالله واسمائه وصفاتهِ.

العلم بالله علم لا ينقطع حتى بعد دخول الجنة:

والعلمُ بالله: علمٌ لا ينقطعُ في الجنة، بل يزداد فيحصلُ لأهل الجنةِ من العلمِ بالله واسمائه وصفاته ما يفوقُ علمَهُم في الدنيا؛ لأنهم يَرونَ الله ويسمعونَ كلامَهُ، فقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ يدخلُ فيه الطلبُ من الله أن يزيدَهُ من العلمِ به في الجنة، فإنَّ القلب يلتذُّ لهذا العلمِ ويطلبُهُ ولا يشبعُ منه.

والعلمُ بالله هو الأنفعُ لقلبِ العبد، وهو علمُ الصحابةِ والسلف، وهو فرضٌ على الأعيان بينما العلمُ بالأحكامِ الشرعية فرضٌ على الكفاية.

ويشملُ العلم بالله: العلمَ بأسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ، والتفكرِ في آلائه وما يتبعُ ذلك من محبتهِ والإنابةِ إليه وغير ذلك.

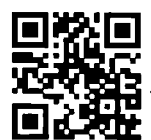
ونصوصُ العلمِ التي تُذكر في نصوصِ الوحي يرادُ بها هذا العلمُ بالمقصودِ الأول، وهو المستحقُّ أن يُفنِيَ العبد عمره في تحقيقِ هذا العلم حتى يصلَ لخشيةِ الله في الغيبِ والشهادةِ.

خلل منهجي في خطة طلب العلم:

ومن الخللِ المنهجي في طلبِ العلم اليوم: أن يحرصَ الطالبُ على التفقهِ في العلوم الشرعيةِ وعلومِ الآلةِ، ويتركَ التفقهَ في العلمِ بالله وأسمائهِ وصفاتهِ وما يتعلق بذلك من أعمال القلوب وفقه النفس. وأُسُسُ هذا العلمِ موجودةٌ في الكتابِ والسنة؛ فقد عرَّفنا الله نفسَهُ وحذَّرنا الله نفسَهُ.





القاعدة الحادية والأربعون:

منافذُ القلبِ: العينُ واللسانُ والأذنُ

معنى القاعدة: أن القلب له منافذ يدخل إليه من خلالها ما يشاء الله، وهي: العينُ واللسانُ والأذُنُ، وهذه الأعضاء أكثر أثراً على القلبِ من غيرها من الجوارح.

فالقلب هو الملك، والأعضاء هم الجنود، ويختلفُ حالُ الجنودِ حسب أثرهِم على الملكِ وقربهِم منهُ، وقد ذكرَ الله السمعَ والبصرَ كثيراً، وقال في شأن اللسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

ما هو ترتيب هذه المنافذ من حيث خطورتها على القلب؟

أهم منافذ القلب: العين؛ لأنها تؤدي عن القلب ويؤدي عنها القلب، فهي مرآته وتنظر لما يُحبه، وكثيراً ما تكشف العين أسرار القلب وهي فراسةُ العين التي ذكرها ابن القيم، وإذا فسدَ القلبُ فسدت العينُ فرأى القبيحَ حسناً، والحسنَ

قبيحاً، وقد أمرت الشريعةُ بغضِ البصر حفاظاً على القلب، وكانت صلاةُ الليل أفضلَ من صلاة النهار؛ لأن القلبَ فيها أكثرُ اجتماعاً بسببِ قصر البصرِ في الليل، وتأثرِ القلب بالصورِ أكثر من تأثرهِ بالسماع، فلا تزالُ الصورةُ تترددُ على الذهن حتى تنطبعَ في القلب.

وأما الأذن: فهي حارسُ القلب وحاجبه، وهي ترسلُ المسموعات للقلب، فيتأملُها القلب ويحللُها ويُظهرُ النتائج منها، وأثرُها على القلب أدومُ من العين، لكنَّ أَثَر العين أسرعُ.

وأما اللسانُ: فهو ترجمانُ القلب ومغرافه، فيخرجُ ما وقرَ في القلب، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨].

فذكر اللسان وهو مغرافُ القلب، وذكر معه الشفتينِ وبهما يطبقُ على لسانهِ فيسكتُ، والسكوتُ عن الشر فضيلةٌ كما أن الكلامَ بالخير فضيلةٌ، والعبدُ مأمورٌ بأن يفعلَ في كل جارحةٍ ما يناسبُها بالحالِ التي تناسبُها.

فالعبد عليه أن يحفظَ منافذ القلبِ ليحفظَ قلبهُ من المفسداتِ؛ فما يُدخَلُ على القلب تخرجُهُ الجوارحُ.

وفائدة هذه القاعدة: أنها تساعدُ على حفظ المنافذِ، وأن يعرفَ المؤمن أخطرَ المنافذِ عليه، وألاَّ يُدخِلَ على قلبهِ من منافذهِ إلا مافيه صلاحُهُ، لئلا يتعب بعد ذلك، فإن تَشدَّدَ في الإدخال ارتاحَ من عناءِ الإخراج.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الثانية والأربعون:

عبوديةُ القلبِ أن يعتكفَ على الله

معنى القاعدة: أن دوام عبوديةِ القلب لله هو المقصودُ من أعمالِ القلوب، ويكون ذلك باعتكافِ القلب على الله كما يعتكفُ البدن في المسجدِ، قرَّر ذلك ابن القيم رحمه الله.

كيف يعتكف القلب على الله؟

وهذا يكون بالتعبدِ المطلقِ الذي لا يتقيدُ بحالٍ ولا وقتٍ، بل له في كل وقت عبادةٌ، وكلما رفعت له منزلةٌ من منازل الإيمانِ قام بها، لا يقومُ إلا بالله ولا يجلسُ إلا بالله، وهذا لكمالِ عبادةِ قلبه وعكوفِهِ عند ربه.

وأساسُ ذلك: أن يحسنَ العبد تَصَوُّر العبودية لله، وأن يعرفَ طرقَها، فإن من المفاهيمِ المُختلة اليوم مفهومَ كلمة (العبودية)، والمراد باختلالها ليسَ في المعنى اللغوي ولا الاصطلاحي الذي قاله ابن تيمية، وإنما في التطبيقِ العملي، ولكي تدركَ ذلك انظر إلى حالِ بعض القلوب

عند الصلاة، فإنها تستشعرُ قيامَها بين يدي الله، واستجابتَها لأمرِهِ، والتذللَ له بالصلاة، بينما لا يَتَأَتَّى هذا الشعورُ عند الخروجِ من المسجد، مع أن منزلةَ العبودية تقتضي أن العبد المؤمنَ يدخلُ للصلاة عابداً، ويخرجُ من المسجد عابداً، فالعبوديةُ صبغةٌ لجلدهِ لا تفارقه كما قال تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ ﴾.

ومن هذا التصور تفننَ السلف في العبادةِ حتى تَحوَّلت مباحاتُهم عباداتٍ، و القلب لا سعادة له، ولا أُنسَ ولا نعيم، ولا قرةَ عينٍ إلا بأن يكونَ الله وحدَهُ هو غايةُ طلبه، ونهايةُ قصده، ووجهُه الأعلى هو كلُ بغيته، عند ذلك يعتكفُ القلب عند ربهِ.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الثالثة والأربعون:

القلبُ بذاتهِ مُفتَقِرٌ إلى اللّه ضرورةً

معنى القاعدة: أن القلب فيه فقرٌ لا يَسدُّهُ إلا عبادتُه لربهِ، فهو مضطرٌ لعبادةِ الله اضطراراً، ولا يمكنُ له أن يستغنيَ عن ذلك.

وقد قرر ابن تيمية رحمه الله أن (القلبَ فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهةِ العبادة وهي العلةُ الغائية، ومن جهةِ الاستعانة والتوكل وهي العلةُ الفاعلة) العبودية،ص١٠٨، ومعنى ذلك أن كل قلبٍ فيه فقرٌ ذاتي من جهتين:

الأولى: افتقارُ النفس البشرية إلى محبوبٍ مرادٍ يُنزِلُ فيه محبتَهُ وتعلقَهُ؛ لوجود حاجةٍ لذلك في كل نفسٍ بشرية، فالنفسُ البشريةُ مفتقرةٌ لوجود من تحبُهُ وتتعلقُ به، وهذه العلةُ الغائيةُ.

الثاني: افتقار النفس البشريةِ إلى مرجوٍ مستعانٍ يتوكلُ عليه ويعتمدُ عليه؛ لأن الضعف من طبيعةِ النفس البشريةِ، وهذه العلةُ الفاعلةُ.

- فمن شأن القلوب أن فيها فقراً ذاتياً، فهي مخلوقةٌ والمخلوق ضعيفٌ من طبيعته، وتتقلبُ والتقلبُ أمارة ضعف، فالقلبُ يقودُهُ فقرُهُ إلى أن يتعلق بمحبوبٍ له مراد، ولا تكملُ حياة القلب إلا حينما يتعلقُ بالحي القادرِ على كل شيء المستغني عن كلِ شيء وهو الله جل جلاله.

القلوب تتعلق بالله ضرورة لا خيار أمامها إلا ذلك:

تعلق القلب بالله إنما هو ضرورة فليس أمامَ القلب إلا التعلقُ بالله؛ لأنه لا فقرَ أتم من فقرِ القلب، ولا غني أكملُ غنى من الله فلم يكن أمامَ القلب إلا الاستعانةُ بالله ضرورةً وإلا فقد هلكَ وفسدَ.

وفقرُ القلب مرتبطٌ معه تشتتٌ وشعثٌ وتفرقٌ واضطراب، فلا يسكنُ القلب ولا يجتمعُ ولا يهدأ إلا بالاتجاه لمولاه سبحانه، كما قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾

ويفهمُ من الآية أن في القلبِ اضطراباً لا يسـكنه إلا ذكر الله، وهذا الاضطراب نتيجةَ فقرِ القلب وضعفِهِ.

- وعلى هذا فلو حصلَ القلب على كل محبوباتِهِ ومراداتِهِ ولم يحصل له عبادةُ الله؛ فلن يهدأَ ولن يستقرَ إلا بالاتجاه لمحبة ربهِ والتعلق به؛ ولهذا كلما ازداد الإنسانُ شركاً بالله ازداد فقراً وعبوديةً لغير الله.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الرابعة والأربعون:

المحافظةُ على عبوديةِ قلوبِ المسلمينَ واجبٌ شرعاً

يجبُ المحافظة على أَنفسِ المسلمين وأموالهم وأعراضهم وعقولِهم **فكذلك يجب المحافظة على عبوديةِ قلوبِهِم**، وهو داخلٌ في عموم المحافظة على دينهِم، ويشملُهُ قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وقد حرَّم الله تناجي الاثنين دون الثالث محافظةً على قلبهِ من وساوس التحزينِ والتخوينِ، لِما يسببهُ التناجي من إشغالِ قلبِ الثالث عن ربهِ فيضطربُ في عبادته لربه.

فيحرمُ بناء على ذلك كل عمل يفسدُ قلوب المسلمين ويصرفُها عن عبوديتها لله، أو يشتت استقرارَها وسكينتَها، أو يُجَهِّلُها بربها وأسمائه وصفاتِهِ.

في قلوب المسلمين اليوم ضعفٌ وقلقٌ فيحرمُ زعزَعتُها:

وليعلمَ العبدُ أن قلوبَ المسلمين - نتيجةً لواقعهم- فيها ضعفٌ فلا يزيدُهُ ضَعْفَاً بتخويفهِم من غير الله، وفيها

ضعفُ محبة له سبحانه فلا يزيدُها بتعليقِ قلوبهم بأحدٍ غيرَ الله، وفيها جهلٌ كبير بربهم فلا يشكِكُهم أحد في دينهم، فمن أعظمِ الظلمِ الإجرامُ في قلوبِ المسلمينّ.

وقد قال ابن تيمية رحمه الله مبيناً منزلة اليقين بالله عند المسلمين : «فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَصِلُونَ لَا إلَى الْيَقِينِ وَلَا إلَى الْجِهَادِ وَلَوْ شُكِّكُوا لَشَكُّوا وَلَوْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ لَمَّا جَاهَدُوا وَلَيْسُوا كُفَّارًا وَلَا مُنَافِقِينَ».

إذن ما سبب ذلك؟

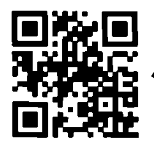
قال: «لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَتِهِ وَيَقِينِهِ مَا يَدْرَأُ الرَّيْبَ، وَلَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْحُبِّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مَا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ».

ما حال هؤلاء إذا ابتلوا بمن يشككهم بدينهم؟

قال رحمه الله: «وَإِنْ اُبْتُلُوا بِمَنْ يُورِدُ عَلَيْهِمْ شُبُهَاتٍ تُوجِبُ رَيْبَهُمْ فَإِنْ لَمْ يُنْعِمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُزِيلُ الرَّيْبَ وَإِلَّا صَارُوا مُرْتَابِينَ وَانْتَقَلُوا إلَى نَوْعٍ مِنْ النِّفَاقِ».

وعلى هذا فيجبُ المحافظةُ على أعمال القلوبِ عند المسلمين، ويحرم العبثُ بها.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الخامسة والأربعون:

القلبُ كالزجاجة

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ وقد فسرها جماعةٌ من السلف بأن المشكاةَ هي صدرُ المؤمن، والزجاجةُ قلبُهُ، وعلى هذا القولِ فالقلبُ كالزجاجة من أوجه:

الأول: الزجاجة شفافةٌ وكذلك قلب المؤمنِ يَشِفُ ما وراءه.

الثاني: أفضل الزجاجِ أرقهُ وأصفاهُ وأصلبُهُ، وكذلك قلبُ المؤمن أحبهُ عند ربهِ ماكان رقيقاً متواضعاً قوياً في حرماتِ الله.

الثالث: الزجاجةُ تحتاج إلى تعاهدٍ ورعايةٍ لئلا تَتسخ، وكذلك قلب المؤمن يحتاجُ إلى عنايةٍ ومراقبة وتطهيرٍ من المعاصي والذنوب.

الرابع: الزجاجةُ تجمعُ النورَ ثم تنشرُهُ، وكذلك قلبُ

المؤمن يجمعُ نور العلم والهدى ثم ينشره لمن حوله.

الخامس: كلما اشتدَّ النورُ في الزجاجةِ اشتدَّ في الكُوَّة، وكذلك إذا قَوِي نورُ قلب المؤمن تَنَوَّر صدرُهُ؛ ولهذا كان من دعائه عليه السلام: «**اللهم اجعل في صدرِي نوراً**».

السادس: الزجاجة تَشِفُّ ما وراءَها وتَصِفهُ ليُعرف التعاملُ معه، فإن كان شيئاً حسناً تُرك وإلا دُفق، وكذلك قلب المؤمن شفافٌ يَعرفُ العبدُ مواطنَ الخطأ فيه، ومواطنَ ضعفهِ فيعالجُها؛ ولهذا قال عليه السلام: (استفتِ قلبك) ومرادُهُ أن القلبَ الحي يعرفُ راحتَهُ ويعرفُ إنكاره؛ لأنه شفافٌ، فإن صار عليه حجابٌ فلن يستطيع أن يعرفَ أمر قلبهِ مع قربهِ له، كما قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة السادسة والأربعون:

القلوبُ تتشابَهُ وتَتَحاكَى

معنى القاعدة: أن القلوبَ تتشابهُ كما تتشابهُ الصور، وهذا التشابُهُ يتبعُهُ محاكاةٌ في الأفعالِ وتقليدٌ لمن يشبِهُهَا.

ويدل لهذه القاعدة: قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ فدلت الآية على تشابُهِ أقوالِهم، تَبعاً لتشَابُهِ قلوبِهِم.

فالقلوبُ القاسية تشبهُ القلوبَ القاسية الغليظةِ، والقلوبُ الرحيمةُ تشبه القلوب اللينة الرحيمة، وقلوبُ المؤمنين متقاربةٌ، وكذلك قلوب المنافقين، ولما تشابهت قلوبُ أهل العلمِ تشابهَ سلوكُهُم مع تباعدِ أقطارِهم، ولما تقاربت قلوبُ العصاةِ تقاربت أفعالُهم مع اختلاف بلدانهم. وكما أن صور الرحمة تتجدد فكذلك صور القسوة تتجدد، وهذا فرعٌ عن تشابه القلوب.

فائدة هذه القاعدة:

وبناء على هذه القاعدة على المؤمن أن يحاكيَ أفعال المؤمنين ليقترب قلبُهُ من قلوبِهم، وكذلك في سلوكِهم وهديهم وسمتِهم.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة السابعة والأربعون:

أعمالُ القلوب أشدُ وقعاً وأثراً على الشيطانِ

معنى القاعدة: أن الأعمال الصالحة لها وقعٌ على الشيطان الرجيم، فتدحرُ شرَهُ، وتخمدُ نارَهُ، وتبعدُهُ وتطردُهُ، وأعمال القلوب أشد الأعمال الصالحةِ أثراً على الشيطان الرجيم من غيرها.

وقعُ الأعمال الصالحة في القلب والجوارح على الشياطين:

لما كانت أفعالُ الجوارح تؤثرُ على الشيطانِ الرجيم فيخنسُ إذا ذُكر الله، ويهربُ إذا نُوديَ للصلاة، ويحضر إذا قرأنا القرآن؛ ولهذا أُمرنا بالاستعاذةِ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، وحضوره عند قراءة القرآن لشدة أثر قراءة القرآن عليه، فالقرآن عليه كالشُهب، هذا في أعمال الجوارح.

وكذلك أعمال القلوب أشدُ وقعاً وأثراً على الشيطان، فالقلبُ الذي عُمِّر بمحبةِ الله والتوكلِ عليه تُحرق أنوارُه ظلمةَ الشيطان فلا يستطيعُ أن يُساكِنَهُ، وإنما يُحاولُ أن يُصيبَ منه على غِرَّةٍ، وهو الطائفُ الذي ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فلكمالِ تقواهُم أصبحَ أذى الشيطان طائفاً يطيفُ بهم ومن حولهم لكنه لا يساكنُ قلوبَهم فضلاً أن يستقرَ فيها، وطوافُه بهم دليلٌ على حربِهِ وعدم غفلتِهِ ويأسِهِ من هذا القلب الطاهر الزاكي فكيف بغيره؟

فإن فاته السكون فلا يفوتُه الخَدشُ، وهي صورةٌ من معارك الشيطان اليومية للمؤمن لكنَّه لا يَشعر.

من صور المعركة الكبرى بين الشيطان وقلب المؤمن:

ومن معارك الشيطان على أعمال القلوب أنه يرسل جنوداً من أتباعه على ذلك القلب، فأحدهُم يزينُ له ما يخالف مرادَ الله، والآخر يخوفهُ من غير الله، والثالثُ يُهون عليه معصيَتَهُ ويؤمِلُهُ رحمةَ الله، ثم لا يكتفي بذلك حتى

يرسلَ عليه جنودُه من الإنسِ فيُجَسِرُونَهُ على المعاصي ويقوون عزمهُ على المخالفة، فللهِ كم يلاقي قلبُ المؤمن من معاركَ مع شياطينه؟! فإذا انتصر فللانتصار لذةٌ لا يعرفُها الأسرى والقتلى، وبتأمل هذه المعارك يظهر لنا آثار اسم الله الحافظِ الحفيظ، وأرفعُ صورِ الحفظ أن يحفظَ الله قلبَ عبده من تَخَطُفِ الشيطانِ العنيد.

ولشدة أثر أعمال القلوب على الشيطان نجده يحضر عند المصلي ليفسد عليه خشوعَه؛ لأن الخشوع يمتدُ أثرُهُ لما بعد الصلاة؛ ولهذا يُكفِر الله للمؤمن مابين الصلاتين على قدرِ خشوعهِ في صلاتِهِ، فأنوارُ بعض الصلواتِ يمتدُ حتى يصلَ للصلاةِ التالية، وبعضُها يقصر كما قرره ابن القيم رحمه الله.

وكلما اشتد أثرُ العمل القلبي على الشيطان فإنه يَشتَدُّ لإفسادهِ ويرسلُ على القلب جيوشَه من الجنِ والإنسِ لزعزعتِهِ، وكذلك الحال في أعمال الجوارح، فاجتهاد الشيطان لإفساد الصلاة أكثر من غيرها لما للصلاة من أثر على إيمان المؤمن، فيُطردُ بالأذان ثم يحضر، ثم يطردُ بالإقامة ثم يحضر.



وفائدة هذه القاعدة:

أنها تجعل العبدَ يتسلح بسلاحٍ قوي يقابلُ فيه عدوَه الرجيم، فمن تَسلحَ بمحبةِ الله والخوفِ منه والاعتمادِ عليه والصدقِ معه كان الانتصارُ حليفَهُ في المعركة مع الشيطان وحزبِهِ، وكلَّما تخففَ العبدُ من هذه الأعمالِ القلبيةِ فسيكونُ كمن حَضَر للمعركة برجالٍ كثيرٍ من غير سلاحٍ شاكٍ نافذ، فأفرحَ خصمَه وأوهنَ عزمَ جيشِهِ، وصارَ عبرةً للمعتبرين.



القاعدة الثامنة والأربعون:

بينَ أعمالِ القلبِ وأعمالِ الجوارحِ تماثُلٌ

قرَّر ابن القيم أن الرضا في أعمالِ القلب يشابِهُ الجهادَ في أعمالِ الجوارح لما بينهما من التشابه؛ فالجهادُ ذروةُ سنام الإسلام في أعمالِ الجوارح، والرضا ذروةُ سنامِهِ في أعمالِ القلب. (المدارج٢/ ٢٠٦).

وقيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: إي والله سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء [المدارج٢/ ٢٠٦].

وهذا فقه عزيز وفتحٌ من الله، وسبيل هذه المقارنة:

- معرفة النصوص الشرعية الواردة في العبادات القلبية والجوارح.
- ومعرفة منزلة الأعمال في الدين، فلكل عملٍ منزلةٌ تليقُ به، ودرجةٌ لا يصلها غيرُها.

فعلى هذا فإن للقلب صلاةً وسجودً وركوعً، وله صِلَةٌ وصدقةٌ وصومٌ واعتكافٌ، وغير ذلك.



أمثلة للأعمال المتشابهةِ بين القلب والجوارح:

- الإحسانُ في أعمال الجوارحِ يشابِهه اليقينُ في أعمال القلبِ فكلاهما استقرارٌ بمطالعةِ نظرِ الله له كأنه يراه.

- والخوفُ في أعمال القلب يشابِهُ الصيامَ في أعمال الجوارحِ لما بينهما من الإحراق، فالصيامُ إحراقٌ للجوف، والخوف إحراق للقلب.

- والخشوعُ يشابه دمع العين، فالخشوع دمع القلب.

- والمحبةُ من أعمال القلبِ تشابه الذكرَ بمعناه العام؛ إذ المُحب ذاكرٌ لمحبوبِهِ، وعلى قدرِ المحبةِ يكون الذكرُ.

- والرجاءُ يشابه التفاؤل والكلمة الطيبة والعمل الصالح النشيط.

- وما أقرب التوكلَ من الصلاة؛ فالتوكلُ يجمعُ عدَّة أعمالٍ قلبية، والصلاة كذلك تجمع عباداتٍ متعددة، والتوكلُ يجمعُ بين عملِ القلب والجوارح بفعل السبب، والصلاةُ فيها أعمال قلبٍ وجوارح، والتوكل لا غنى للمؤمن عنه، فهو يتوكل على ربه في كلِ حركاتِهِ وسكناتِهِ، والصلاةُ

كانت مفروضةً خمسين صلاة وهي تستغرقُ يوم الإنسان وليلته، وكذلك التوكل يستغرق يوم الإنسان وليلته.

وفائدة هذه القاعدة:

أن يجتهد المؤمن في تحقيقِ أرفع الأعمالِ القلبية لحياةِ قلبه، وبهذا يلحقُ بمن سَبق، ويَسبقُ من أدركَ، وذلك فضلُ الله يؤتيهِ من يَشاءُ.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة التاسعة والأربعون:

إنما القُوةُ في القلبِ

جعل الله قوةَ المؤمن في قلبهِ، وقوةُ بدنه تبعٌ لقوة قلبهِ؛ ولهذا وإن كان المؤمن ضعيفاً في بدنهِ وتعترضهُ الأمراض والأسقامُ إلا أنَّ قلبَهُ لا يخونُه أحوجَ ما يكون إليه، وليس الأمر كذلك عند المنافقِ والكافر، وهذا سِرُ قدرة رجلٍ - كبيرِ السن مريضٍ - على قيامِ الليل وانعدامِها في شابٍ قويِ البدن.

ما المراد بقوة القلب؟

قوة القلب أن يجتمعَ للقلب أمران:

- سلطانُ الحجةِ: وبها يَنتصرُ على الشبهاتِ ويحطمُها.
- وسلطانُ النصرةِ: وبها ينتصرُ على الشهواتِ فيقهرها.

وكلما كان القلب قوياً كان أكثر شجاعة وثباتاً، ويوم الأحزاب بلغت القلوب الحناجر فقال ضعافُ القلوب: (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا)، وقال أقوياءُ القلوب: (هذا ما وعدنا الله ورسوله).

- **ومما يوهن قوة القلبِ المعاصي والذنوب** وإن لم توهن

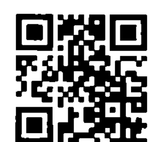
الجسمَ، فإذا تابَ العبد وأنابَ واستغفرَ ذهبَ الوهنُ والضعفُ بوقت وجيز، ولما تهدد فرعون سحرته بعد توبتهم فقالوا مباشرة: (لا ضير)؛ لأن القلب مَلِكٌ فإذا قوي قوي جنوده وتشجعوا.

- ومن قوة القلب: قيامه بأعمال القلوب على كثرتها واختلافها، فمن يقدر على القيام بهذه الأعمال ويثبت عليها فهو القوي حقاً.

ما سر قوة القلب؟

وسر قوة القلب: لارتباطه بربهِ، فالله قويٌّ ويعطي القوة لمن تعلقَ به، فيطالع القلبُ قوةَ الله وكبرَهُ فيَصغُرُ في القلب كلُ ماعدا الله، وكلما تعرف القلب على صفاتِ ربه هانَ عليه ماعدا ربهِ، فكلُ مربوب إنما هو تحت قدرةِ الله وتصرفِهِ، يصرفه الله على مايشاء، فمن أعطاكَ ما ترجوه فلأن الله القويَّ أمره ولو تباعدت عنك الأسبابُ، ومن منعكَ ما تريدُ فلأن الله القويَّ منعك ولو تهيأت لك الأسبابُ إلا أن مسببها لم يُرِد ذلك.





القاعدة الخمسون:

من الفقه معرفةُ الفروقاتِ بين أعمالِ القَلبِ في الدرجة الواحدةِ

معنى القاعدة: من فقه أعمال القلوب أن يعرف العبد الفرق بين درجات المنزلة الواحدة من أعمال القلوب، فلكل منزلة من أعمال القلوب أعمالٌ تخصها، وتتقارب أحياناً في معانيها إلا أن بينها فروقاً ولا بُدَّ، فدرجات المنزلة الواحدة متقاربة لكن ليست متماثلة، وإنما تختلف من وجهٍ دون وجهٍ، فمثلاً:

الصدقُ يقارب الإخلاصَ وبينهما فروقٌ: فالإخلاص يتعلق بأصلِ القلب بأن يريدَ الله، والصدقُ أن يتوافقَ باطنُهُ مع ظاهِرِهِ فلا يدعي التوكل وهو ليس كذلك، ولهذا كثيراً ما يُذكر الإخلاصُ في مقابلِ المشركين، ويُذكر الصدقُ في مقابل المنافقين.

ومن التقارب: منزلة الخضوع والخشوع والإخبات والذل والافتقارِ، فهي منازلُ متقاربةٌ وبعضها أعلى من

بعضٍ، فبابُها جميعاً الذل والانخفاض، لكن الإخبات انخفاضٌ مع تواضعٍ وسكونٍ لله، والخضوعُ ذلٌ في البدن، والخشوع انخفاضٌ في القلب مع ذل لله نتيجةً للمحبة والتعظيم؛ ولهذا كان الخشوعُ أخصُ وأرفعُ من الجميع؛ وهذا أحد أسرارِ ذكره في صفات المؤمنين (الذين هم في صلاتهم خاشعون).

ومن التقارب: منزلة الخشية والخوفِ والإشفاق، فهي منازلٌ متقاربةٌ إلا أن الخشية خوف من الله مشوبٌ بعلم، فمن عَلِمَ أسماء الله وصفاته وأفعاله رُزِق خشيتَهُ، والخوف أعمَّ من ذلك؛ ولهذا ذَكر الله الخشيةَ حينما ذكر العلماء فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، وأما الإشفاقُ فهو خوفٌ مشوبٌ بحذرٍ، فالله يحذرنا نفسهُ ومن حَذِرَ أَشفَقَ.

طريقة جمع الفروق بين أعمال القلوب في المنزلة الواحدة:

وطريقة جمع الفروقات بين أعمال القلوب يكون بما يلي:

١ - جمع نصوصِ المنزلة القلبيةِ من الكتاب والسنة ثم النظر فيها جملةً.

٢- النظرُ في سياق الآيات والأحاديثِ التي وردت فيها.

٣- الرجوعُ لمعاجم اللغةِ العربية لمعرفةِ أصلِ المعنى.

٤- مطالعةُ كتبِ الفروق.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الحادية والخمسون:

أعمالُ القلوبِ توازنُ الإيمانَ والحياةَ

من فضائل أعمال القلوب أنها تجعلُ الإيمانَ متوازناً، فالخوفُ لوحده يورثُ القلب القنوطَ من رحمة الله، فإذا رُزِق الرجاءُ اعتدلت حياتُهُ وسيره إلى الله، وكذلك المحبةُ لوحدها تورثُ العبد اللينَ والانبساطَ فإذا رُزِق العبد الخوفَ من الله اعتدلَ وصَحَّ سيرُهُ، وكذلك الخشوعُ والخضوع يقابلهُ الفرحُ والأنسُ بالله لتستقيمَ حياةُ القلب.

وقد قرَّر السلف رحمهم الله:

- أن من عبدَ الله بالحب وحدهُ تزندق: لأن الحب لوحدِهِ يورثُ الانبساط والتهاون بالمحرمات، ويعتمدُ على الوعدِ دون الوعيد.

- **ومن عبدَه بالرجاء وحدَهُ فهو مرجئ**: لأنه سيتركُ العملَ اعتماداً على رجاءِ قلبه لله.



- ومن عبدَهُ بالخوف وحده فهو خارجيٌّ: لأنه اعتمدَ على أحاديثِ الوعيد فكفر بالمعاصي.

- والموحدُ: من عبد الله بالحبِ والرجاءِ والخوفِ لتتوازن حياتُهُ وسيره إلى الله.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الثانية والخمسون:

لا تجعلْ قلبَكَ كالأسفنجة ولكن كالزجاجةِ المُصمَتَةِ

قرر ذلك ابن تيمية رحمه الله بوصيته لابن القيم بقوله: «لا تجعل قَلْبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فَلَا ينضح إلا بهَا، وَلَكِن اجْعَلْهُ كالزجاجة المصمتة تمر الشُّبُهَات بظاهرها وَلَا تَسْتَقِر فِيهَا، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته وَإِلَّا فاذا اشربت قَلْبك كل شُبْهَة تمر عَلَيْهَا صَار مقرا للشبهات» [مفتاح دار السعادة١/ ١٤٠].

ولعل ابن تيمية أخذَ هذه القاعدة من قوله تعالى: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ فقد فُسرت بقلبِ المؤمنِ، وذِكرُهُ للأسفنجةِ يدلُ على ما يلي:

١- الأسفنجةُ لينةٌ تقبلُ كل ما أهريق عليها، وتقبلُ طيَّ من طواها، وليست الزجاجةُ كذلك، فقلبُ المؤمن لا يكن لِينُهُ بمعنى قبوله ما أُلقي إليه وعليه.

٢- الأسفنجة إذا سُكب عليها سائلٌ فإنها تتشرَبُهُ ويدخلُ السائلَ إلى أعماقِها، وقلب المؤمن لا يكن كذلك فيتشربُ



البدعَ والمنكراتِ؛ لصعوبةِ إخراجِها بعدَ ذلك.

٣- الأسفنجة لا يظهرُ من خلالِها لونُ ما شربتهُ؛ لأنه وصلَ إلى أعماقها، فلا يعرفُ الإنسان هل الأسفنجة خالية أم مليئة؟ وقلبُ المؤمن لا ينبغي أن يكونَ كذلك، بل يجبُ أن يكون شفافاً تظهرُ ما فيه من أعمال واعتقاداتٍ وإراداتٍ.

وفي الواقع المعاصر تمسُّ الحاجة لهذه القاعدة لا سيما مع تتابعِ الشبهات وكثرة الشياطين المقررةِ لها، فليس الحلُّ في تتبعِ الشبهات والجواب عنها، وإنما معرفةُ الحق وملازمتهُ، فبمعرفة الحق يتبين ماعداه، ويبقى الجواب على كل الشبهاتِ فرضاً على الكفاية يقومُ به أهل الاختصاص.

فائدة هذه القاعدة:

وهذه القاعدة تحفظ على العبد وقتَهُ وعمرَهُ فلا تجعله في تتبع الشبهات والإيرادات والجوابِ عنها، وإنما تقصُرُهُ على معرفة الحقِ وطلبِهِ ومجاهدةِ النفس على العملِ به.



القاعدة الثالثة والخمسون:

القلبُ يُظلِمُ ويُنيرُ بحسبِ مافيه من إيمانٍ ونفاقٍ

القلب يدخله النور فيبصرُ الحق، وتداخله الظلمةُ فيعمى عن الحق الواضح، وظلمتُهُ هي بانطفاء نوره، وأصلُ نوره من إيمانه بالله، وأصل ظلمته بكفرهِ بالله،فأصبحت القلوب من حيث النور والظلمة على قلبين:

الأول: قلب منورٌ بنورِ الله بحسبِ مافيه من إيمانٍ خالص.

والثاني: قلبٌ فيه نورٌ وفيه ظلمةٌ بحسب مافيه من نفاقٍ، وليس المراد هنا المنافق النفاق الاعتقادي الأكبر وإن كان داخلاً بالمقام الأول، إنما المقصود بالمنافقِ هنا من كان من أهلِ الإسلام وداخلَهُ من صفاتِ المنافقين ولم يَتبْ منها، فالذنوبُ نوعُ نفاقٍ كإخلافِ الوعدِ والكذبِ في الحديث والخيانةِ في الأمانة، وأما قلبُ الكافر فقد استحكمت ظلمتُهُ فليس فيهِ نورٌ.

وآياتُ القرآن التي نزلت في شأنِ المنافقين إنما مقصودُها أن يراجعَ المؤمن نفسَهُ ويتبرءَ من صفات المنافقين التي داخلتهُ وهو لا يشْعر.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الرابعة والخمسون:

زكاةُ القلوبِ فضلٌ من فضلِ اللّه

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ يدل على أن زكاةَ قلوب المؤمنين هي من فضلِ الله عليهم ورحمتِهِ بهم؛ ولهذا أتى بحرف الاستعلاء (عليكم) ليفيدَ أن الفضلَ والرحمةَ تعلُوهم وتغشاهُم، وتسليطُ النفي (ما) مع النكرة (من أحد) تفيدُ نفي جميع صور التزكيةِ إلا ما تفضل الله به علينا.

وأثبت الله الفلاح لمن تزكى فقال: (قد أفلح من تزكى) ودخول حرف التحقيقِ على الفعل الماضي (قد أفلح) يفيدُ التوكيدَ، وفِعل (تزكى) مُشَدد الحرف الثالث، وهذا يدلُ على ما يبذله الـمُزكي لنفسُهُ من اجتهادٍ وبذلِ جهدٍ وتكرارٍ للحصول على نتائج التزكية.

كيفية حصول المؤمن على فضل زكاة القلوب:

ويحصل هذا الفضل بعدةِ وسائل منها:

١ـ ملئ القلبِ من كلام الله وكلام رسوله عليه السلام، فلا

يتزكى القلبُ بشيءٍ كالوحي.

٢ـ التعرضُ لنفحات الله بسؤالِهِ والإلحاح في ذلك.

٣ـ الاهتمامُ بكلام الصحابة في هذا الباب وفهمه.

٤ـ جمع كلام التابعين في هذا الباب ومن ذلك: أويس القرني، وابن المسيب، ومحمد بن المنكدر، وزين العابدين، ومالك بن دينار، وعمر بن عبد العزيز.

٥ـ مطالعةُ كتب الآثار ومنها كتب الزهد لعدد من الأئمة: عبد الله بن المبارك، ووكيع، وأحمد بن حنبل وغيرهم.

٦ـ طلب العلمِ في أعمال القلوب بالقراءةِ والتدرجِ في الكتب، ومنها كتب ابن القيم رحمه الله.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الخامسة والخمسون:

القلوبُ تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدانُ

قال علي رضي الله عنه: «أجمعوا هذه القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تملّ كما تملّ الأبدان» [جامع العلم وفضله(٦٥٩)].

وهذا من فقه علي رضي الله عنه أنه يقيسُ الغائب على الشاهدِ في بعض جوانبِهِ التي تتشابهُ معه، ومَلَلُ القلوب من طبيعتها؛ فقد تملُّ من انقطاعها لله وتبتلها له، وقد تمل من خَلُوصها من حظوظ نفسها، وقد يداخلها المللُ من جهة رجائها، فإن الراجي إن طالَ ما يرجُوه ولم يتحقق ترك رجاءه كما هو الداعي الذي يدعو بشيء لم يستجبْ له.

ما الضررُ الناتجُ عن مللِ القلب؟

ومللُ القلوب يعودُ على أعمالِها بالخبت، ويُهيئ نشؤ قسوةِ القلب كما قال الله عن أهلِ الكتاب: (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) فكان طولُ الأمدِ والمللُ موقعاً لهم في قسوة القلب.



ومع طبيعة ملل القلبِ إلا أن لأعمال القلوبِ أيضاً لذةً لا تشابِهها لذةٌ، فمعرفةُ الله ومحبتُهُ، وامتلاءُ القلب بذلك، واعتمادهُ عليه، وأنسُهُ بذكرِهِ، واستعانتُهُ عليه، وتفويضُ أمره إليه، يوجبُ للقلب سعادةً من ذاقها يصعب عليه أن يتراجعَ عنها، بل لا يزالُ القلب يطلب المزيد منها، حتى يظن العبد أنه لم يَصل بَعْدُ للذة الكاملة، فاللذةُ اللاحقةُ تنسيهِ اللذةَ السابقة.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة السادسة والخمسون:

العبدُ يرى بنورِ قلبِه مداخلَ إبليس على نفسِه

معنى القاعدة: أن القلب الذي داخله النور، يستطيع أن يعرف مداخل الشيطان على قلبه وذلك لكمال نوره، فالإيمان نورٌ يستقر في القلب، والقلب مستودعُ النور ووعاؤه، كما قال: (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) وقد فسرها جمع من السلف بأنه نور قلب المؤمن، ومن ثمراتِ النور أنه يرى مداخلَ إبليس على نفسِهِ.

معرفة عيوب النفس:

ولا تُرى مداخل إبليس على النفس إلا بمعرفة عيب النفس، وقد كان الصحابةُ أعرفَ الناس بعيوب أنفسهم، فكانوا يصلحُونها، فإن أعظمَ الجهلِ الجهلُ بالله ثم الجَهل بالنفس.

اختلاف مداخل إبليس على الناس:

ومداخل إبليس على القلب تختلفُ من إنسان لآخر؛ فبعضهم يَصبرُ على الصيامِ لكنه يضعف عند الشهوة،

وبعضُهم لا يحبُ الجاه لكنه يحبُ المال، فلكل عبدٍ مدخلٌ يدخل منه الشيطان، والتوفيق أن يدافع المؤمن دخولَهُ فيسد ثغراتِ قلبِهِ، فإن لم يستطع فليطرُدِ الشيطان بالذكرِ فلا يزالُ الشيطانُ طائفاً حولَ القلب الذاكر حتى يغفل، فإذا غفلَ دَخَل.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة السابعة والخمسون:

الشيطانُ يَستَزِلُ العبدَ في أعمالِ القلبِ كما يستزِلُهُ في أعمالِ الجوارِحِ

معنى القاعدة: أن الشيطانَ يعمل جاهداً على أن تَزِلَ قدم المؤمن، فلا يجعله يثبت على الطاعةِ، فكما يفعل ذلك في أعمالِ الجوارح فهو أيضاً يستزِلُهُ في أعمال القلب.

ودليل هذه القاعدة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فالآية تفيد أن الاستزلال من عمل الشيطان، فما من عمل يعمله المؤمن إلا والشيطان يحاول بخيلِهِ ورجلِهِ على أن يكون له نصيبٌ فيه، فيبدأُ بصرفِ النيةِ عن الإخلاصِ، ويُفسدُ الباعثَ عليه، فإن لم يستطيع فأثناء العملِ يفسدُ عليه خشوعَهُ واستمرار مراقبته لربه، فإن لم يستطع فإنه يستزِلُهُ بعدَ العملِ بالمنةِ فيه على الله.

استزلال الشيطان للمؤمن في أعمال القلوب:

فالشيطان يستزِلُ المؤمن في أعمالِ القلوبِ، ومن ذلك: أن يستزِلَ إخلاصَه ليفسِدَهُ عليه، أو يستزِلُ رجاءَهُ وحُسَنَ

ظنِهِ بالله ليَجعَلَهُ غُروراً، أو يستزلُ خوفَهُ من ربه ليوصلَهُ إلى اليأس.

وفي الدرجةِ الإيمانيةِ الواحدةِ يحاول أن يستزل المؤمن من الفاضل إلى المفضول، ففي التوكل مثلاً:

يحاولُ صرفَهُ إلى التوكلِ على الله في تحقيقِ أمورٍ مقسومة محتومة كالرزق؛ ليصرفه عن التوكلِ على الله في تحقيقِ أمورِ الدين وهي أعلى مراتبِ التوكل.

ويقابل الاستزلال في أعمال القلوب: الثبات عليها وحفظ القلب عن فواتها.



القاعدة الثامنة والخمسون:

شَرعَ اللّهُ للقلبِ من الأعمالِ ما يستغرقُ كلَ حركاتِهِ وإراداتِهِ

معنى القاعدة: أن الله حينما خلقَ القلبَ وأنزلَ له شرعَهُ ودينَهُ ووحيَهُ، جعل له من الأعمالِ القلبيةِ ما يستغرقُ جميعَ حركاتِهِ وإراداتِهِ لو أرادَ أن يفعل، فلو انشغلَ القلب بهذه الأعمالِ طولَ حياتِهِ لكانت تستوعبُ حياتَهُ.

ويدل لهذه القاعدة:

قوله تعالى: ﴿ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ فلما نَسوا ما ذكروا به من الوحي استبدلُوه بغيرِهِ من كلامِ البشر، فحدَثَ بينهم الخصوماتُ والعداوةُ والبغضاءُ؛ لأن التعلقَ بكلامِ البشرِ يُورثُ العداوةَ، والملاحظُ في الآيةِ أن العداوةَ لم تأتِ مع الجزء الذي لم ينسَوه، وإنَّما جاءت مع المنسي من كلامِ الله؛ لأن الوحيَ المعظمَ يورثُ المحبةَ والتواؤمَ بين أتباعِهِ.



كلُ من تَركَ عَملاً مشروعاً من أعمالِ الجوارحِ أو القلبِ وَقَعَ في المُحَرمِ:

وكذلك أعمال الجوارح: فالعبد متى ما أخذَ بعضاً من الأعمال غير المشروعةِ زهد في الأعمالِ المشروعة وقَلَّت رغبتُهُ فيها، ومن هنا قرَّر السلف أن من تركَ سنةً فقد وقعَ في بدعةٍ، وكذلك من أكثر من سماع الأغاني قَلَّت رغبتهُ في سماع القرآن، ومن أكثرَ من زيارةِ الأماكن المحرمةِ ضَعُفت رغبتُهُ في زيارةِ بيت الله.

وأعمال القلب كذلك: فمتى ما صرفَ العبد شيئاً من أعمال قلبهِ في غيرِ شرع الله وقع في المحرَمِ ولا بُدَّ، ومثال ذلك:

أن من لم يمتلئ قلبه من محبةِ الله، ولم تستوعب المحبةُ قلبه فقد فتحَ في قلبهِ ثغرةً للتعلُّقِ بمحبةِ غير الله، وكذلك الخوفُ والرجاء، فالقلب لا يتسعُ لمحبةِ الله ومحبةِ غيره، والتوكلُ على الله والاعتمادُ على غيره، والخوفُ من الله مع خوف غيره، فعلى هذا فإن في القلبِ قدرةً على أن يحبَ الله بكلِ قوتِهِ وإرادتِهِ وأن يتعلقَ به، وأن يرجوه ويتوجَهُ إليه بكليتِهِ فمتى زُوحم بذلك تفرغَ من عملِهِ.

فائدة هذه القاعدة:

وهذه القاعدة تفيد المؤمن بأن يجعل أعمال الإيمان مشروع عمره، وأن تستغرقَ حياتِهِ كلَّها.





القاعدة التاسعة والخمسون:

تَتعدَدُ مُتَعلقاتُ أعمالِ القلوبِ بالله

معنى القاعدة: أن القلب إذا كان له عملٌ قلبيٌ يعملُهُ كالمحبةٍ مثلاً، فإن أسبابَ تحقُقِها في القلب تختلفُ من شخصٍ لآخر.

وقد قرَّر هذه القاعدةَ ابنُ رجب رحمه الله في رسالتِهِ (الذلُ والانكسارُ للعزيزِ الجبار) أن أعمال القلوب تختلفُ حسبَ متعلقِهَا بالله، وهذا في العملِ القلبي الواحدِ .

أمثلةٌ لاختلافِ المتعلقاتِ في العملِ القلبي الواحدِ:

فمثلاً الخشوع: منهم: من يخشعُ قلبُه لله لِمَا يشاهدُهُ من صفاتِ قوتِهِ وبطشِهِ وانتقامِهِ وغضبِهِ وسخطِهِ على أعدائه، فإذا طالع الآيات التي فيها هذا المعنى كآياتِ إهلاكِ الظالمين، وآياتِ وعيد الله؛ خَشَعَ قلبُهُ.

ومنهم: من يخشع إذا شاهد بقلبه جلالَ الله وجمالَهُ، وتَتَابُعِ نعمِهِ على عبادِهِ، وحلمِهِ بهم، ورحمتِهِ لهم فيورثُه

ذلك الخشوعَ حياءً من ربه.

ومنهم: من يخشع إذا علمَ مراقبةَ الله له، واطّلاعه عليه وعلى حركاته وسكناتِهِ وخلواتِهِ.

وكذلك محبة الله: فمنهم من يحبُهُ لصفاته الجليلة، ومنهم من يحبُهُ لفقرِهِ إليه وحاجتِهِ إليه، ومنهم من يحبهُ لإحسانهِ وبرهِ به، ومنهم من يحبه لذاته سبحانه فمن عرف الله أحبَّه ولا بُدَّ.

وكذلك التفويض إليه: فمنهم من طالع صفات قوة الله ففوضه، ومنهم من شاهدَ صفات سعةَ علم الله فَفوضَهُ، ومنهم من شاهدَ غنى الله وتمامَ مُلكِهِ ففوضَهُ وهكذا.

وكلما كان المتعلقُ أعلى كان أفضل، ومن استطاعَ مشاهدةَ أكثر من متعلقٍ فهو أكملُ ممن شاهدَ بقلبِهِ متعلقاً واحداً، ولا تجتمعُ هذه المتعلقاتِ في قلبٍ إلا إذا تَمَّ نُورُهُ.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الستون:

أعمالُ القلوبِ تحتاجُ إلى مجاهدةٍ كأعمالِ الجوارح

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ يشملُ أعمال القلوب، فهي تحتاجُ إلى جهادٍ ومجاهدة، وقد كان السلفُ يجاهدون أنفسهم في باب النية أكثر من غيره؛ لأنها أصل الأعمالِ، وتستمرُ مجاهدتهم لسنواتٍ حتى تسقيمَ لهم نياتُهم، وسببُ استقامتها مع تقدم السنوات عدة أشياء منها:

- صبرهُم على المجاهدةِ، وقد وعد الله أنه يهدي المجاهد.
- ومنها يأسُ الشيطان من الوسوسةِ له في هذا الباب لينتقل إلى باب آخر.
- ومنها تقدمُ العمر الذي يعطيهِ خبرةً في الحياة على التخلصِ من شوائبِ كانت معه أولَ حياتهِ، مثل حبِ المدحِ أو غيره.

- وفي أعمال الجوارح تشتد المجاهدةُ كلما كان العمل الإيماني شاقاً على النفسِ، فمجاهدةُ النفس في قيام الليلِ أصعب منها في صلةِ الرحم، وكذلك الحالُ في أعمال القلوب، فكلما كان العملُ القلبي عالي القدرِ والمنزلةِ كانت المجاهدةُ فيه أشدُّ كالمحبةِ والتوكلِ والإخلاصِ واليقينِ والرضا وغير ذلك.

ألم المجاهدة لا يستمر طويلاً :

ومما ينبغي أن يعلم أن ألمَ المجاهدة لا يطولُ طويلاً، فإن علمَ الله صدقَ عبده فتحَ عليه في الوصول إلى ما يريدُ من مقاماتِ الإيمان، ثم يعوضُه عن ألمِ مجاهدتِهِ السابقِ بلذةٍ لاحقةٍ تفوقُ ألمه، وسبب هذا أن القلبَ يألفُ منازل الإيمان ويُحبها بطبيعتِهِ، فالإخلاصُ لله والإنابةُ إليه والاعتمادُ عليه محبوبٌ عند الفطرةِ السوية، فما على العبدِ إلا أن يصبرَ قليلاً حتى يصلَ إلى موافَقَةِ صحيحِ قلبِهِ لصريحِ فطرَتِهِ.

تلخيص للقاعدة:





القاعدة الحادية والستون:

إنما تحفظُ أعمالُ القلوبِ برعَايتِهَا

ومعنى هذه القاعدة: أن كل عملٍ من أعمال القلوبِ يحتاجُ لرعايته أمرين هما: صيانةٌ وحفظٌ.

فيصون ذلك العمل القلبي بالعلم المأخوذ من كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، حتى لا يقعُ بالزلل، فالزلل في أعمالِ القلوب والابتداعُ فيها لا يَقِلُّ عن الزلل والابتداعِ في أعمالِ الجوارح، وهذا يدلُ على أن لكلِ عملٍ قلبي تَصَورٌ شرعي وتَصورٌ بدعي، فالتوكل عند أهل السنةِ والجماعة يختلفُ عن التوكل عند الفرقِ البدعية، وهكذا الأعمال الأخرى، فيجبُ أولاً تحصيل التصورِ الصحيح وهي الصيانةُ العلمية.

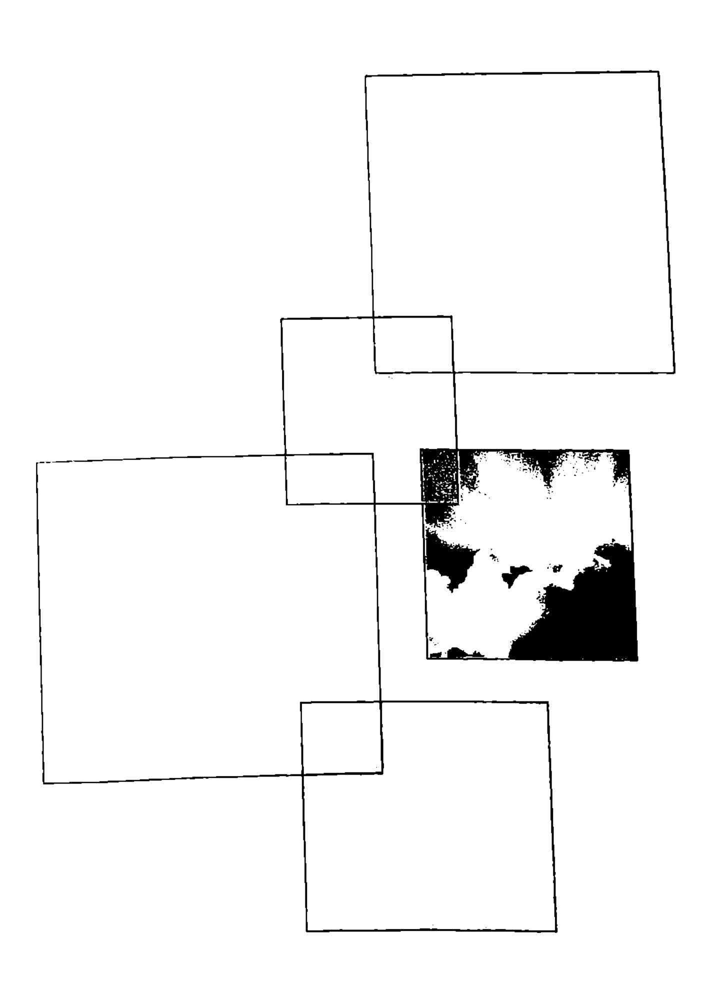
ويحفظ ذلك العمل القلبي عن المفسدات؛ فلكل عمل مفسداته، وكما أن لأعمالِ الجوارح مفسداتٌ كالمنةِ تفسدُ الصدقة، فكذلك أعمال القلوب لها مفسداتٌ.

ويستدل لهذه القاعدة:

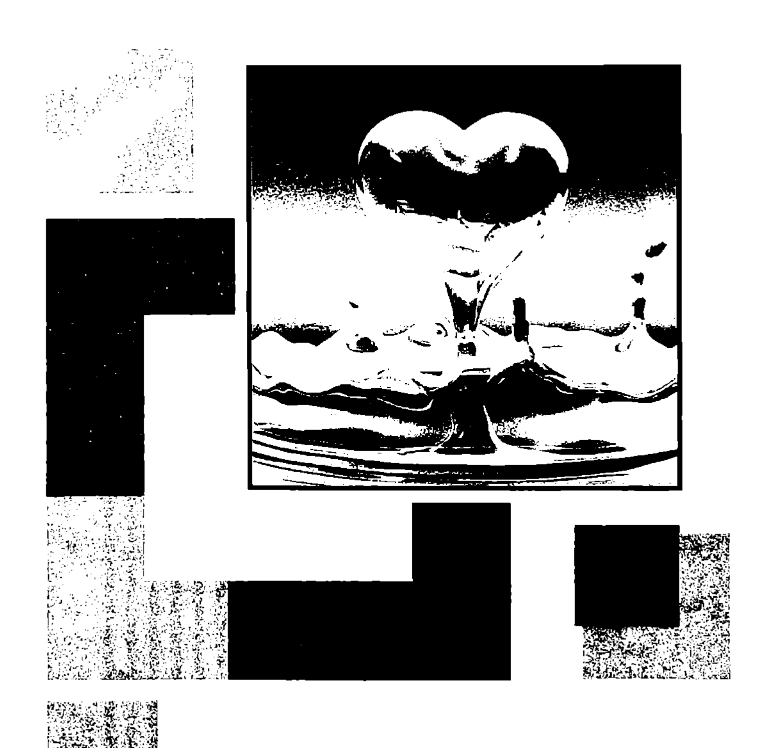
بقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ قال ابن القيم رحمه الله (المدارج ٢/ ٦١): (والقصدُ أن الله ذمَّ من لم يرعَ قربةً ابتدعها لله حقَ رعايتِها، فكيف بمن لم يرعَ قربةً شرعَها الله ورضيها لعباده؟).

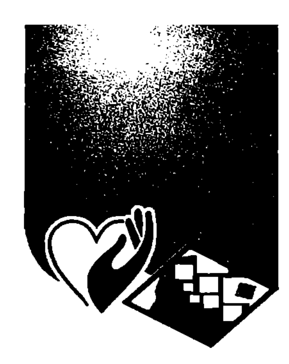
وهذه القاعدة تدل على أن لكلِ عمل قلبي مفسدٌ من المفسدات فالإخلاصُ يفسدُهُ الرياء، والتوكلُ يفسدُهُ النظرُ للحولِ والقوة، والخشوعُ يفسدُهُ الكبر، والتوبةُ تفسدها المِنَّةُ، والزهدُ والتواضع يفسدهُما الطمعُ، والذكرُ يفسدُهُ الغفلةُ، والرجاءُ يفسدُهُ الأماني وغير ذلك، وهذا جزءٌ من فقه أعمال القلوب يحتاج إلى جمعٍ وبسطٍ من أهل العلم الراسخين، ولن تُعدم الأمةُ منهم خيراً.



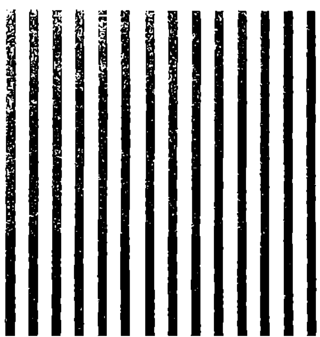


قواعد في بعض أعمال القلوب





قواعد في
أعمال القلوب





القاعدة الأولى

التلازمُ بين المحبةِ والخوفِ والرجاءِ

أركانُ العبادة الثلاثة: المحبةُ والخوفُ والرجاءُ، وتعريفها:

المحبة هي: صفاءُ المودة في القلبِ للمحبوب.

والخوفُ هو: انفعالٌ يحصل بتوقعِ حدوث مكروهٍ.

والرجاءُ هو: تأملُ الخير وقربُ وقوعهِ.

وقد استدل الشيخ محمد بن عبد الوهاب لهذه الأركان باجتماعها في سورة الفاتحة، فالحبُ في قوله: (الحمد لله رب العالمين)، والرجاء في الثانية: (الرحمن الرحيم)، والخوفُ في الثالثة: (مالك يوم الدين). (تفسير الفاتحة، ص٦٠) وهو استدلالٌ عميقٌ يدل على أن أعمالَ القلوب ترتبطُ بأسماءِ الله وصفاته.

وهذا الاستدلال يشابهه ترتيبَ حصولها في القلب، فأول ما تستقرُ المحبة فيه؛ إذ المحبة ألطفُ الأعمال وأرقُها وأكثرُها موافقة لطبيعةِ القلب، فإذا استقرت امتلأُ القلبُ

رجاءً لمن أحبه، ثم يورثه ذلك الخوفَ من تضييعِهِ وفواتَ الفضل منه.

ما وجه التلازم بين هذه الأعمال الثلاثة؟

وهي متلازمةٌ، فعلى حسب المحبة يكونُ الرجاء والخوف، فالإنسانُ أرجى ما يكون لحبيبِهِ أحبَ ما يكون إليه، وكذلك خوفُه يشتدُ ويقوى بحسبِ قوة المحبة، ولتدركَ هذا التلازم فانظر: إلى حالٍ عبدٍ أنعم عليه سيدُهُ وتولى نعمتَهُ عليه، فأحبَهُ بفطرتِهِ، إذ القلوبُ مفطورةٌ على محبةِ هذا النوعِ، فلما صدقَ في محبته قرَّبَهُ سيدُهُ حتى صار قريباً منه جداً، ومع هذا الحبِ تولدَ عند العبدِ شعورٌ برجائه لِسيدِهِ، فإنه يرى كل يومٍ منه ما يقودُهُ إلى الرجاءِ أكثر من ذي قبل، وبعد مدة زمنيةٍ ستجد أن شعوراً جديداً أصاب العبد وهو الخوفُ من غضبِ سيدِهِ، والخوفُ من أن يفعلَ العبدُ شيئاً يسخطُ سيدَهُ، والخوفُ من أن تَفوتَ منزلةُ القربُ من هذا السيد الكريم، هذا كله لأن محبة العبد صادقة.

والخوفُ بلا رجاءٍ ولا محبةٍ: قنوطٌ، والرجاء بلا خوفٍ: أمنٌ من المكر، والمحبةُ بلا خوفٍ: تلذذٌ وتوسعٌ في الأهواء، والمحبةُ بلا رجاءٍ: عبثٌ.

كيف يجتمع الخوف والرجاء وهما متضادان؟

وفي أعمال القلوبِ ليس الرجاء ضدُ الخوف بل هو رفيقٌ له ملازمٌ له؛ مصححٌ له، لا يكونُ أحدُهما كاملاً صحيحاً إلا بالآخر، فالرجاء قائدٌ والخوف سائقٌ، وهما يستلزمان المحبةَ ويرجعان إليها؛ لأنها أصلُ كل عمل، وهذا التلازمُ مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ ﴾.

فائدة هذه القاعدة:

هذه القاعدة تُسَهِلُ تحصيل أعمال القلوب عند المؤمن فإن صدق في تحصيل عملٍ واحد قاده ذلك إلى استجلاب العمل الآخر، فقد يظنُ البعيد عن أعمالِ القلوب تناقض هذه الثلاثةِ وصعوبةِ جمعها، بينما هي من طبيعةِ القلبِ الفطري أن يحبُ مولاه ثم يرجوه ثم يخافُ منه.







القاعدة الثانية

محبةُ الله هي رأسُ أعمالِ القلوبِ وأسُاسِهَا

محبـةُ الله هـي: أن يقوم بالقلـب إجـلالُ الله وتعظيمُهُ ما يقتـضي أن يُمتَثَلَ أمـرُهُ ويُجتنبَ نَهيُهُ، وهـي المحرك لأعمال القلوب الأخرى.

وأهلُ العلم يجعلون القلب في حال سيره إلى الله كالطائر، ويُمثلُونَ المحبة كرأسِ الطائر فمتى قُطع الرأس ماتَ الطائر، فكذلك القلبُ إذا خلا عن محبة الله خرجَ عن الإيمان، فهي أساسُ أعمال القلوبِ الأخرى، من حقَّقها وجاهدَ نفسَهُ عليها انقادت له المنازلُ الأخرى تتابع.

ومـن عجائـب منزلـة المحبـة: أن المحـبَ الصـادق ربما كان سـيرُهُ القلبي في حال أكله وشربه وجمـاعِ أهله وراحته أقـوى من سـيرهِ البـدني في بعـض الأحيان؛ وهـذا من قوةُ منزلـة المحبة وكرامتِها على الله، كـما قرَّر ذلك كله ابن القيم

[المدارج٢/ ٢٠]. والمعنى: أن محبة الله إذا استقرَّت في القلب وتمكَّنت منه وشاهدَ القلب من أسماء الله وصفاته ما يزيدُهُ شوقاً لربه ومحبةً له، فإذا كان على هذا الحال فإن أكلَه الذي يأكلُهُ يزيده حباً لمولاه الذي تَفَضَّل به وكذلك نومُهُ وسائر نِعم الله عليه، فإذا قام بعد ذلك يصلي قام بقلبٍ أكثر محبةً من ذي قبل، وقد يأتيه أيضاً وهو في حالٍ مباح من شعور المحبة لربه وأنسه به ما لا يحصل له عند عمله عملاً بدنياً من عبادات الجوارح، وهذا شأنُ القلب، فإن له انفعالاتٍ كبيرة، والإنسان يجد ذلك من حاله فقد يكون في روضة خضراء جميلة فيجد في قلبه من الحب لله تلك اللحظة أكثر مما وجده أثناء طاعة من طاعات الجوارح.

ولهذا المُحِب يُسامَح بما لا يُسامَح به غيره، وليس ذلك إلا للمحبة، وأصدقُ الحبِ لله أن يحبَهُ لذاته، فمن عَرف ربَهُ أحبَهُ ولا بُدَّ، فأسماؤه وصفاتُه تقودُ لحبِهِ؛ والمحبة من قوةِ منزلتها أنها تدُوم في الآخرة لأهلِ الجنة فيتنعمون في الجنة بحبِ الله، بخلاف الخوف فإنه ينقطعُ إذ أَمِنُوا من كل مَخُوفٍ بعدَ دخولهم الجنة.

ولمحبة الله علامات: الرأفةُ بالمؤمنين والعزةُ على الكافرين، والجهادُ في سبيل الله بأنواع الجهاد، واتِّباع الرسول صلى الله عليه وسلم وغير ذلك.

ولمحبةِ الله لوازمُ: أن يحبَ الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن يحبَ ما يُحبه الله ويبغضَ ما يبغضُه الله.

ولمحبة الله أسبابٌ منها: كثرةُ ذكرِه، ومطالعةُ أنعامِهِ، وتلاوةُ كلامِهِ، وانكسارُ القلبِ بين يديه، ومتى ما وُجد حضورُ الله في القلب كانَ أدنى الأشياء تدعُوه للمحبةِ وتحريكِها، ومتى ما ابتعدَ القلب عن الله احتاجَ وسائل كثيرةٍ لتحريكِ محبتِهِ إن استطاعَ.

محبةُ الله مشروعُ عُمُر للمؤمن:

ومحبة الله مشروعُ عمرِ المؤمن لا يستبطئُ المؤمن حصولَهَا، فإنها مرتبةٌ عزيزةٌ، تعطي بعضَها لمن أقبلَ إليها بكليتِهِ، ولا تسرع باتهامِ نفسِك بخلو قلبِكَ منها، فقد لا تشعرُ بوجودِها وهي كامنةٌ، فكثيرٌ من المحبةِ لا يعرفُهُ الإنسانُ إلا بعدَ فقدِ محبوبِهِ، فإذا وصلتَ لمنزلة المحبة وبدأتْ تدخلُ لقلبِكِ،

واستشعرت قلبَكَ اتجه لمولاه ولمحبوباتِ مولاه، وبدأَ القلبُ يغضبُ لمولاه أكثر من غيرهِ، وغيرتُك أصبحت تبعاً لما يغارُ عليك مولاك، ثم أصبحتَ تفرحُ بنداءِ الله للصلوات، وأُعنت على ذكر الله، وانقادت نفسُك لكتاب الله، فقد دخلت المحبة للقلب، فاستكثر فالله أكثر.







القاعدة الثالثة

الخوفُ من اللّهِ شرطُ الإيمانِ

الخوف هو: ذعرٌ وانفعالٌ يحدث في القلب بتوقعِ مافيه هلاكٌ أو ضررٌ، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يُستنبطُ منه أن الخوفَ شرطٌ من شروطِ الإيمان؛ لأنه عُلق عليه بأداةِ الشرط، فلا يصحُ الإيمانُ إلا بوجودِ الخوفِ.

والخوفُ على نوعين:

أ) الخوفُ المحمود: وهو الذي يجعلُ بينك وبين المعاصي حَاجزاً، وقد يزيدُ فيكونُ سَبباً في زيادةِ طاعاتِ العبد.

ب) الخوفُ المذموم هو: الموصلُ لليأسِ والقنوط، وهو من حِيَلِ إبليس، وكثيرٌ ما يُحاولُ الشيطان أن يفسدَ الخوف بالإفراطِ أو التفريط، فيستزلُ المؤمن ليصلَ إلى القنوطِ من رحمةِ الله، فكما أن الشيطان له حيلٌ في أعمالِ الجوارح فكذلك أعمالِ القلوب.

ولا غنى للمؤمنِ عن الخوف من الله في جميع حالاتِهِ سواء كان طائعاً أم عاصياً؛ فالطائعُ يخاف تَقَلُّبَ القلبِ ومكرَ الله ودخائلَ النفس، والعاصي يخافُ عقوبة الله.

والخوف يثمر: الورعُ والاستقامةُ وقصرُ الأمل؛ ولهذا فهو يزعجُ القلب إزعاجاً ليسيرَ إلى الله سبحانه.

الألفاظ المقارِبة للخوف والفروقاتُ بينَهَا:

وهناك **ألفاظ متقاربة مع الخوف** بيَّنها ابن القيم: كالوجلِ والرهبةِ والخشيةِ والهيبةِ، وهي ألفاظ متقاربة وليست مترادفة، وبيانُها:

الخشيةُ: خوفٌ مع علم بالله، **والرهبةُ هي**: سفر القلب في طلب الله، وهي كالهربِ مما عدا الله، **والوجلُ** هو: حالة رجفانِ القلب عند ذكر الله، **والهيبةُ** خوفٌ معه تعظيمٌ لله، وعلى المؤمن أن يسعى لهذه المنازل وبعضُها داخلٌ في بعض، وبعضُها أدومُ من بعض، ويكفي من الوجلِ مالا يكفي من الخشية؛ فحاجةُ القلب للخشيةِ أشدُّ، وأولُ ما يحصلُ للقلب الخائفِ الوجلُ، والقلب رقيق إذا ذُكر الله وَجِل إلا أن يكون عليه حجابٌ، فإذا وَجِلَ فقد ارتَهب وسافرَ إلى



طلب الله، فكلما تقدَّمَ سيرُهُ لربِهِ امتلأَ من مهابتهِ، كحال سيدٍ عظيم هربت إليهِ لتقديم اعتذارِكَ واعترافِك فكُلما اقتربتَ منهً زادت هيبتُه في قلبَك، حتى يُخَيَّلُ إليك أنَّ هذه الرهبةَ لو كانت عندَكَ أولَ الأَمرِ لم تأتِ بقدمَيكَ إليه، وكل مراحلِ السيرِ هذه تقدمُكَ للخشية، فالخشيةُ أشرفُ منازلِ الخوفِ وأعلاها.

ولا تجد الخائفَ إلا هارباً ممسكاً، فيهربُ عما يغضب مولاه، ويمسكُ لسانَه عن كلمة تسخطُ عليه رباً أحبه، فحالُهُ كحال عبدٍ استقر في قلبهِ محبةٌ وخوفٌ من سيدِهِ فهو يراعي بالمحبة أنسَهُ وانبساطَهُ إليه، ويخاف لهيبتِهِ سقوطَه بزلةٍ تغضب عليه سيدَهُ، والخوف من الله يجعلك تَهربُ إليه كما قال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحرف (إلى) هو حرفُ الغاية والمعنى: حتى تصلوا إلى الله فهناك أمانُكم في الدنيا والآخرة.

حاجةُ زمانِنا لمنزلةِ الخوفِ من الله أكثرَ من غيرها:

سبقَ بيان أن لكلِ وقتٍ عبادةٌ قلبيةٌ تناسبُهُ، وفي الوقت المعاصرِ ومع ازدياد الغفلةِ واستحكامِها في القلوب، وكثرةِ الملهيات، وتتابعِ الفتن فيحسنُ بالمُتقي أن يعتنيَ بمنزلة

الخوف، ويستكثرَ من أدلتِها، وينظرَ إلى آثارها في الواقع، فشدَّةُ الحرِّ من فيحِ جهنم، وشدةُ البردِ من زمهريرها، وقلةُ الزروع عذابٌ عُذِّبَ به قومٌ، وقلةٌ بركة المالِ كان من عقوباتِ قوم فرعون ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، وكثرةُ الأمراض الحسيةِ إنما هي مكفراتٌ لذنوبٍ، وليس الخوف سوء ظنٍ بالله، إنما واجبٌ، كما أن الغفلةً عقوبةٌ، فالخوف من الله فضلٌ من الله، يؤتيه الله لمن يريد الله يُؤَمِّنَهُ.

وكثيرٌ من منتجات الزمنِ المعاصرِ تؤثرُ على أعمالِ القلوب، والخوفُ من تلك الأعمالِ التي تتأثرُ، وهذا موضوعُ بحثٍ يحتاجُ إلى بيان أثرِ الواقعِ المعاصرِ على أعمالِ القلوب.





القاعدة الرابعة

الرجاءُ الشرعيُ لا بُدَّ معهُ مِن عَملٍ

الرجاء هو: تأملُ الخير وقربُ وقوعه، ولكي يكونَ الرجاء شرعياً صحيحاً فيشترطُ أن يكونَ معه عملٌ؛ لقوله: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾، فكلُ رجاءٍ بلا عملٍ فهو غرورٌ وأماني.

الضابط في معرفة صحة الرجاء من عدمه: هو وجود العمل؛ فمتى ما وُجِد مع الرجاء عمل شرعي فهو صحيح وإلا كان باطلاً، ويُسمى أماني ولا يُسمى رجاءً.

ومن العبثِ المعاصر في باب الرجاء:

أن يُركَّز على الرجاء ليذهبَ الخوفُ من القلب.

وكذلك من العبثِ أن يُزاد في الرجاء ليزولَ تأنيبُ الضميرِ من الذنب.

ومن العبث نشرُ الرجاء لِتَخِفَّ الغَيرةُ على محرماتِ الله.

ومن العبثُ تضخيمُ الرجاء في الأمورِ المادية كالرزقِ

والمالِ والوظائفِ، وإهمالِ الرجاء في الأمورِ الدينية كانتشار دين الله، وتَعَلُّمِ العلمِ، وتحقيقِ الإيمانِ وغير ذلك.

أثرُهُ على أعمالِ الجوارحِ:

وكلما كان الرجاءُ كاملاً صادقاً أورثَ صاحبَهُ الجدَّ والاجتهاد؛ فمن كان يرجوا شيئاً وهو صادقٌ في رجائه فإنه سيكونُ أكثرَ جديةً وعملاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ فالراغبُ هو الراجي؛ فقرنَ بين مسارعتِهم في الخيراتِ ورجائِهم.

الرجاءُ ضرورةٌ لا خيارَ غيرُه:

ولا غنى للمؤمنِ عن رجاءِ الله سواءً فعل طاعةً أو زَلَّت به القدمُ بمعصيةٍ، فإن عَمِلَ طاعةً رجا ثوابَها، وإن أذنبَ رجى مغفرةَ ربه، فالرجاءُ في كل حالاتِ العبد، ولا يمكنُ أن تتخيلَ إيماناً بالله بدونِ رجائِه، فتركُ الرجاء نقضٌ للإيمانِ من أصلِهِ.

وقد اختلف أهلُ العلم في أيِّ الرجائين أكملُ: رجاءُ المحسنِ الذي ينتظرُ ثوابَ إحسانِهِ أو رجاءَ المذنبِ الذي ينتظرُ عفوَ ربِهِ؟



وابنُ القيم ذكر الخلاف ولم يرجح. [مدارج السالكين ٢/ ٣٨]، ومع كلٍ ميزةٌ ليست مع الآخر، فالراجي الطائع سائرٌ على ما طُلِب منه، والمذنبُ الراجي معه الذُّلُ الذي يُحِبُّهُ الله، والمؤمن يجمعُ بين هذين الرجائين حسبَ حالتِهِ من الطاعةِ أو المعصيةِ.

الرجاءُ سببٌ من أفضلِ الأسباب:

ومما يحسنُ التنبيهُ عليه أن كثيراً من أعمالِ القلوب هيَ أسبابٌ من أعظمِ الأسبابِ الجالبةِ لما يرجوه العبدُ من ربهِ، كما أن أعمالَ الجوارحِ سببٌ لتحصيل المطلوب فالدعاء سببٌ قوي، والتسبيحُ أخرجَ يونس من بطنِ الحوت، فكذلك أعمالُ القلوب أسبابٌ وهي أقوى من أعمالِ الجوارح، فالتوكلُ الشرعي سببٌ قويٌّ في الوصولِ للمطلوبِ، والرجاءُ كذلك سببٌ، فإذا جمعَ الرجاءَ بقلبِهِ والدعاءَ بلسانِهِ تحققَ مطلوبُهُ بحولِ ربهِ.

وللرجاء فوائد عديدة منها:

١- إظهارُ الفقر لله، فالراجي مفتقرٌ بحالِهِ ولو لم يكن بلسانِهِ، فكيف إذا اجتمعَ الحالُ واللسان؟.

٢- تَلَمُّس الراجي لفضلِ الله، والمَلِكُ يُحبُّ أن يُرجى فضلُهُ.

٣- استمرارُ القلب في سيرِهِ إلى الله، فلولا الرجاءُ لما ثَبَتَ القلبُ مع طولِ الطريق أحياناً ومشقته أحياناً، فكلما هدأَ سيرُ القلب لله وعبوديتِهِ له أسرعَ به الرجاء، وما أقربَ المرجو من الراجي الصادق.

٤- أنه طريقٌ لتحصيلِ الأعمالِ القلبية الأخرى، فمن رجى أحسنَ الظن، واعتمدَ وتوكلَ، وأَنِسَ بمرجوهِ، وفَرِحَ بهِ، وزادَ تعلقه على قدرِ رجائهِ، فإذا زاد الرجاء أورثَ المحبة ولا بُدَّ، ثم يسري هذا الفضلُ إلى الجوارحِ فتعملُ بطاعةِ الله لتحصيلِ ما ترجوه من ثوابِهِ ورحمتِهِ وفضائِلِهِ.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الخامسة

اليقينُ في القلبِ كالإحسانِ في الجوارحِ

اليقينُ هو العلمُ الحاصلُ للقلب؛ فيوجبُ التصديق، وينفي الشكَ، ويوجب الطمأنينةَ، وصفه ابن القيم بقوله: (هو من الإيمان منزلة الروح من الجسد). [المدارج ٢/ ٣٤٧].

ما الحكمةُ من تخصيصِ (الموقنين) في قولِهِ: ﴿لآيات للموقنين﴾؟

وأهلُ اليقينِ هم أهلُ الانتفاع بآيات الله وبراهينِهِ الكونيةِ والشرعيةِ، وقد قال الله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ وتخصيصُ الموقنين دون غيرِهِم؛ لأن المُوقنَ يزيدُهُ إيماناً كلُ ما يراه من آثارِ صنعِ ربِهِ، والأرضُ هي أكثر المصنوعات يلامِسُها ويباشِرُها المؤمنُ فكان فيها آياتٌ كثيرةٌ لأهل اليقين.

وهو للقلبِ كالإحسانِ للجوارحِ؛ فالإحسانُ في الجوارح: أن تعبدَ الله كأنك تراه، واليقينُ للقلب هو أن تعبدَ الله كأنك تراه؛ فالقلبُ قد استقرَ واستيقنَ بربِهِ، ولا يكونُ كذلك إلا حينما يستشعرُ رؤيتَهُ لله، ولهذا جعلَهُ الله

منزلةً لأوليائهِ فقال: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾، وصيغة (يوقنون) مضارعٌ يفيدُ التجددَ والاستمرارَ، مما يدلُ على تجددِ اليقينِ في القلب وزيادتِهِ حتى يُلاقي ربَهُ.

خطورةُ العبثِ باليقينِ في قلوبِ المسلمين اليوم:

ولا يوصفُ باليقين إلا من اطمأنَ قلبُهُ علماً وعملاً؛ ولهذا قال ابن تيمية مبيناً أن الكثيرَ من المسلمين لم يصلوا لليقين لعُلوِ منزلتِهِ: (فكثيرٌ من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد، ولو شُكِكُوا لشَكُّوا، وليسوا كفاراً ولا منافقين بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يَدرأُ الرَيبَ) [الإيمان، ص٢٥٧].

فلا يجوزُ العبثُ بأعمال القلوبِ عند المسلمين اليومَ لضعفِ الحالِ، وتَسَلُطِ الأعداءِ، وقلةِ فقه القلوب، كما سبقَ بيانُهُ في القواعدِ العامةِ لفقهِ القلوب.

واليقينْ على نوعين:

أ) يقينٌ في خبرِ الله بالإيمان بما أخبرَ الله به وتحققِ صدقهِ ووقوعهِ.

ب) يقين في أمرِ الله الشرعي بامتثالِ أوامرهِ برضا وطمأنينةٍ وتسليم.

ومن فضائلِ اليقين: أنه سبيلٌ لتحقيقِ منازلِ القلبِ الأخرى، فمن أيقنَ بربهِ صدقَ معه وأخلصَ له، وتوكلَ عليه واعتمد، وفوضَهُ أمورَه.

ما أفضل الطرق لمعرفة الله؟

وسبيلُ تحصيلِ اليقين يكونُ: بالعلمِ بالله وأسمائهِ وصفاتهِ، ورؤيةِ آثارها في الحياة، وأن يَعرف الله بآياتهِ وهي أعلى أنواع المعرفة، فإن معرفةَ الله على نوعين:

١- أن ينظرَ إلى الآياتِ الكونية فيعرفُ الله من خلالها، فينظرُ في السماء والأرض والشمس والقمر، وسننِ الله في الحياةِ فيرى فيها قدرةَ الله وقوتَهُ ورحمتَهُ وحكمتَهُ.

٢- أن ينظر إلى أسماءِ الله وصفاتهِ فيرى آثارَها في الكون، فما من عظمةٍ في الكونِ إلا وهي من آثارِ عظمتهِ سبحانه، ولا رحمةٍ في الحياةِ إلا وهي من آثارِ رحمتِهِ بخلقِهِ، وهذا سبيلُ أهل اليقين في معرفتِهِم بالله.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة السادسة

مَن أحَبَّ غيرَ اللّه عُذبِ بِه

من عقوبات الله لعبدِهِ أن يعاقبَهُ بنقيضِ قصدِهِ أحياناً، فمن تكبَّر على الناس أهانَهُ الله وأذلَّهُ، وكذلك أعمال القلوب يُعاقب العبد فيها بنقيضِ قصدِهِ أحياناً، ومن ذلك أن من أحَبَّ غيرَ الله وتعلقَ به واعتمدَ عليه ورجاه عُذِّب به، وذلكَ لأن الله يَتخلى عنه ويُخلي بينه وبين من تعلق به، ومدارُ ذلك أن أمرَ الله بأن يتعلقَ عبده به إنما هو من آثارِ رحمتِهِ بعبدِهِ، فإن أعرضَ العبدُ أعرضَ الله عنه وخلى بينه وبين نفسِهِ.

وعلى هذه القاعدةِ: فأكمَلُ الناسِ عذاباً من أحبَّ غير الله، وأكملُ الناسِ سعادةً من لم يُحِب إلاَ الله، وكلُ من أحبَّ فقد التفتَ قلبُه إلى ذلك المحبوبِ؛ لأن الحبَّ التفاتٌ.

قال ابن تيمية رحمه الله مُقَرِراً القاعدة: «**فَمَتَى كَانَ يُحِبُّ غَيْرَ اللهِ لِذَاتِهِ أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِ اللهِ أَنَّهُ يُعِينُهُ كَانَ**



عَبْدًا لِمَا أَحَبَّهُ، وَعَبْدًا لِمَا رَجَاهُ بِحَسَبِ حُبِّهِ لَهُ وَرَجَائِهِ إِيَّاهُ»
[الفتاوى ٥/ ١٨٩].

ومثل تقريره يقول ابن القيم: «فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللهَّ عُذِّبَ بِهِ، وَسُجِنَ قَلْبُهُ فِي مَحَبَّةِ ذَلِكَ الْغَيْرِ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْهُ، وَلَا أَكْسَفُ بَالًا، وَلَا أَنْكَدُ عَيْشًا، وَلَا أَتْعَبُ قَلْبًا، فَهُمَا مَحَبَّتَانِ، مَحَبَّةٌ هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، وَسُرُورُ النَّفْسِ، وَلَذَّةُ الْقَلْبِ، وَنَعِيمُ الرُّوحِ وَغِذَاؤُهَا وَدَوَاؤُهَا، بَلْ حَيَاتُهَا وَقُرَّةُ عَيْنِهَا، وَهِيَ مَحَبَّةُ اللهَّ وَحْدَهُ بِكُلِّ الْقَلْبِ، وَانْجِذَابُ قُوَى الْمَيْلِ وَالْإِرَادَةِ، وَالْمَحَبَّةُ كُلُّهَا إِلَيْهِ».

وَمَحَبَّةٌ هِيَ عَذَابُ الرُّوحِ، وَغَمُّ النَّفْسِ، وَسِجْنُ الْقَلْبِ، وَضِيقُ الصَّدْرِ، وَهِيَ سَبَبُ الْأَلَمِ وَالنَّكَدِ وَالْعَنَاءِ، وَهِيَ مَحَبَّةُ مَا سِوَاهُ سُبْحَانَهُ)!.

وكلُ من أحبَّ أحداً لغير الله كان ضررُ الذين أحبَهم لغير الله أكثرُ من ضررِ أعدائه؛ لأن الأعداءَ يحولون بينهُ وبينَ بعضِ أمورِ الدنيا، أو يوقعون به ضرراً يعتبرُ ابتلاءً يُكفر عنه ذنوبَهُ،أما الذين أحبَهُم لغيرِ الله فيحُولون بينهُ وبينَ الله.

يَحرمُ التهاونُ بالقلبِ واللَّعِبُ بهِ وبِحُبِّهِ:

إن هذه القاعدةَ تدلُّ على أن القلبَ يَحرمُ اللعِبُ بهِ، والتهاونُ بشأن تعلقهِ وتعريضُ محبتهِ للابتذال، كتوجِيهِ القلبِ إلى محبةِ النساء أو توافهِ الأمور، وإذلاله بذلك، وصرفُ قوتِهِ وإرادتِهِ إلى أمرٍ يتحققُ بأدنى من ذلك.

كما تُبينُ القاعدةُ أن أعلى مقاماتِ أهل الإيمان محبةُ الله، فمن تحقَقَت له المحبة وكان الله أحبَ إليه مما عداه رُزِقَ اللذةَ في الدينا وهي من جنس لذة أهلِ الجنة، وإنَّ في الدنيا جنةً من لم يدخلْها لم يدخلْ جنة الآخرةِ، ومن ذلك حبُ الله.





القاعدة السابعة

طمأنينةُ القلبِ أصلُ أعمالِهِ

معنى القاعدة: أن القلبَ لا يُؤدي أعمالَهُ إلا قدرِ طمأنينتهِ، فكلما كان أكثرَ طمأنينةً كان توكلُهُ وصدقُهُ ويقينُهُ واستعانتُهُ أتمَ وأكملَ، فإن اضطرابَ القلب مُحِقٌّ أعمالَهُ.

كلُ اسماءِ الله الحسنى وصفاتِهِ تُؤدي إلى طَمأنةِ القلبِ:

ومن تأملَ فقهَ الأسماءِ الحسنى عَرف أنها جميعاً تُؤدي إلى طمأنةِ القلبِ وسكينتِهِ، فكلُ قضيةٍ يمكنُ لها أن تشغلَ قلبَ المؤمن يُقابلهَا اسمٌ من أسماءِ الله يزيلُ اشغالَهَا ويعيدُ استقرارَها، وأكثرُ قضية يمكن لها أن تزعزعَ القلب قضيةُ الرزق، فانظر إلى اسم الله: الغني الرازقِ الكريم المؤمنِ الجبار القوي الحافظِ الوكيل الكفيلِ المقيت وغير ذلك كيف أن من أعظمِ آثارِها أنها تُربي المؤمنَ على اليقينِ برزقِهِ، وتكفلِ الله به ووكالتِهِ عليه، وغناه وامتلاءِ خزائنِهِ، وحفظِهِ لأرزاق عبادِهِ، وأما اسم الله الجبارِ والقوي فدلالتهُا على

الرزق: أن الله من جبروتِهِ وقوتهِ أنه يرزقُ عبداً رغم سعي الأعداءِ بقطعِ رزقهِ، ويرزقُهُ رغمَ شدةِ الظروفِ الحياتيةِ، فيأتي القويُ الجبارُ برزقهِ ولو كرِهَ الكارهون، وهذا أحدُ لطائفِ قولهِ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فختمت الآية بالقوي العزيزِ ليبينَ أن الرزقَ يأتي بقوتِهِ ولو كرِهَ من أرادَ قطعُهُ، وهذا من لطفِهِ بعبادِهِ إذ لم يجعل أرزاقَهُم بيدِ بعضِهِم بعضاً.

مشتتات الطمأنينة في الزمن المعاصر:

وكثيرٌ من قضايا الوقت المعاصرِ إنما تزيدُ من تشتتِ القلب وتفرقهِ بين أوديةِ الأمراض؛ ولهذا تكثُرُ الهمومُ والغمومُ حتى وصلَ تفكيرُ البعضِ وهمومُهُ بما تكفَّلَ الله به كالرزقِ والعمر، وكذلك ما فعلتهُ وسائلُ التواصلِ، والتسابقُ على تحصيلِ المال، والتَرَفُّهُ بالسفرِ والنزهات حتى أصبحت مقصودةً لذاتِها، والشهرة تصنع صناعةً، وانكسارُ قلوبِ من لم يستطع ذلك، والاطلاعُ على بيوتِ الناس وأثاثِها ومساحاتها، ومتابعةُ أحاديثِ الناسِ ويومياتِهم، والتَنقُلُ من بلدِ إلى بلدِ عن طريقِ هذه الوسائل، كل ذلك



زاد القلب شتاتاً، وأصبح القلب مثقلاً بأمور هي خارجةٌ عن اهتماماتِهِ، لكنه يتابع هوى صاحبِهِ، **وهذا يُحتِّمُ على العبدِ أن يزيدَ في المحافظة على استقرارِ قلبِهِ وسكينتِهِ**، والتخلصِ من كثيرٍ من مشتتاتِ الوقت الحالي.

ولا يكونُ هذا التخلصُ إلا **بتوحيدِ هَمِّ القلبِ على ربِهِ وشرعِهِ**، فكلُ ما عدا ذلك إنما يزيدُ من وهنِ القلب وضعفِهِ.

قد تلتبسُ الطمأنِينَةُ بالسكون إلى شيءٍ معلوم، فما الفرق بينهما؟

والمراد بذلك أن منزلة الطمأنينة الإيمانية القلبية قد تلتبس على الإنسان حينما يكون لديه أمرٌ يعتمد عليه من منصب أو جاه أو مال، فإنه يجد في نفسه سكوناً وطمأنينة، فيظن أنه حقَّقَ الطمأنينة الشرعية، فهل هذا الظن صحيحاً؟

هناك سرٌ نبه إليه ابن القيم في (المدارج٢/ ١٢٤) أن الطمأنينةَ بالله قد تَشتَبِهُ مع الطمأنينةِ إلى سببٍ معلومٍ فقال: (اشتباه الطمأنينةِ إلى الله والسكونِ إليه، بالطمأنينةِ إلى المعلوم، وسكونُ القلب إليهِ، ولا يميزُ بينهما إلا صاحبُ

البصيرة) وبيَّن أن أكثر المتوكلين يُخطئونَ في هذا الباب.

وهذا الكلامُ يُبينُ لنا دقةَ أعمال القلوبِ والحاجةَ إلى التفقهِ فيها أكثر من غيرها، ومرادُ ابن القيم أن القلب قد يَطمئنُ ولا يكونُ ذلك لاعتمادِهِ على ربِهِ وإنما بسببِ وجودِ شيءٍ معلومٍ من منصبٍ أو مالٍ معتمدٌ عليه وهذا من تلبيسِ إبليس في مقاماتِ القلوب.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الثامنـة

أقربُ الطرقِ إلى الله الافتقارُ إليهِ

اجتهدَ السلف في بيانِ أقرب طرقِ العبودية إلى الله؛ لإدراكهِم أن ذلك يحفظُ الوقتَ ويستثمرُ الجهد، ويرفعُ المنزلة في الجنة، فقال أكثرُهم: بأن أقربَ الطرق إلى الله هو: الافتقارُ إلى الله، ولهم في ذلك فقهٌ مُمَيَّزٌ.

ما المقصود بالافتقار؟

ويقصدونَ به: أن يشهدَ العبدُ في كل ذرةٍ من ذراتِهِ الظاهرةِ والباطنةِ فاقةً وفقراً تاماً إلى الله تعالى من كل وجهٍ، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فلا يأخذُ العبدُ إلا ما كتبهُ الله، ولا يُمتنعُ عنه إلا ما منَعَهُ الله، ولا قيامَ للعبدِ إلا بإعانةِ الله، ولا توفيقَ إلا بتوفيقِ الله له، ومن خُذِل فلأن الله خَذَلَهُ، لا مانعَ لما أعطى ولا معطي لما منعَ، ولا تَحَولَ من أمرٍ إلى أمرٍ إلا بهِ، ولا قوةَ على هذا التحولِ إلا به، فرجعَ الأمرُ إليه أولاً وآخِراً، وظاهراً وباطناً.

فالكونُ مخلوقٌ فهو مفتقرٌ إلى الله سبحانه فلا وجودَ له إلا بالله، فالله يمسكُ السموات والأرضَ أن تزولا، والإنسانُ

شيءٌ من هذا الكون المفتقر، والروحُ والقلبُ في هذا الإنسان الفقير أشدُ أعضائه فقراً، فهي مفتقرةٌ إلى خالقها من جهةِ أنه سبحانه محبوبُها الأعظم ومطلوبُها الأعلى.

كلما افتقرَ العبدُ أصبحَ غنياً:

كلما كانَ الشخص أشدَ افتقاراً إلى الله كانت الخلائقُ محتاجةً له؛ ولهذا لما كَمُل افتقارُ الرسلِ لله سبحانه أحوجَ الله الخلائقَ إليهم كما قرره ابن القيم (الفَوائد،ص٥٤).

الافتقار لله يولدُ أعمالاً قلبية أخرى ومنها: حسنُ الظن بالله، ورجاؤه، والتعلقُ به، وهو درجةٌ من درجاتِ التوكل، ويورثُ المحبة، وحاديهِ الخوفُ من الله؛ ولهذا أصبحَ الافتقار أقربَ الطرق إلى الله لما تضمنَهُ من عباداتٍ قلبية.

فمن افتقرَ إلى الله فقد أحبَّه الله، فإن أحبَّ العبيدِ عند السيد هو أكثرهُم افتقاراً عندَه، ومن وَقَرَ الافتقارُ في قلبِهِ فهو أكثرُ العبادِ رجُوعاً وإنابةً ليسدِهِ، فكلما أبعدَهُ ذنبه أرجعَهُ ذلُّهُ.







القاعدة التاسعة

دوامُ ذكرِ اللّه باللسانِ من دلائل صلاحِ القلبِ، لأن اللسانَ مغرافُ القَلبِ

اللسانُ هو ترجمانُ القلب، وهو المعبرُ عن مكنوناتِهِ، وهو أقلُ الأعضاءِ تأثيراً على القلب لكنَّهُ أقواها في كشفِ حقائقِ القلوبِ وما تنطوي عليه، وما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلا أظهرَها الله على فلتاتِ لسانِهِ، وقال الله عن المنافقين: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾ فلما استقرَ النفاقُ في قلوبِهم ظهرَ اللحنُ في ألسنتِهِم، لأن اللسانَ مغرافُ القلب يُخرج ما بداخلِهِ.

وقد شبَّه الله الكلمةَ الطيبة بالشجرةِ الطيبة، ومعلوم أن الشجرةَ منغرسةٌ بجذورِها تحت الأرض، وكذلك كلمةُ اللسان منغرسةٌ بقلبِ صاحبها، وكما نستدلُ على صحةِ غذاء الشجرةِ باخضرارِ أوراقِها وطيبِ ثمارِها؛ فكذلك الكلمةُ الطيبةُ دليلُ طيبِ القلب ونمائِهِ.

وأكثر ما يدلُ على صلاحِ القلب هو اللسانُ، فدوامُ ذكرِهِ لله واستغفارِهِ وكلامِهِ بالخيرِ دليلٌ على استقامةِ قلبِهِ وصلاحِهِ وفلاحِهِ.

حربُ الشيطانِ على اللسانِ:

وحربُ الشيطان على اللسانِ تكونُ بالمراتبِ التالية:

١- يحاولُ أن يستخرجَ كلماتِ اللعنِ ليتعاظمَ بها الشيطان.

٢- ثم يحاولُ ألا يذكرَ العبدُ ربَه.

٣- ثم يجتهدُ ألا يجتمعُ قلبُهُ على الذكر.

٤- ثم يجتهدُ أن يسكتَهُ عن كلامِ الحقِ.

ولَخَّصَ ابنُ القيم ذلك بقوله: (ثم يقول: قوموا على ثغر اللسان، فإنّه الثغر الأعظم، وهو قُبالة الملك، فأجْرُوا عليه من الكلام ما يضرّه ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله تعالى، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، أو التكلّم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان لا تبالُون بأيّهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل، فإنّ المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم، ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحقّ، فإنّ الساكت عن الحقّ أخ لكم أخرس). [الجواب الكافي، ص٢٣٤].

ومن مكرهِ وكيدِهِ: أنه يقعدُ على لسانِ المؤمن، فيُقَرِّبُ الكلمة الشيطانية من فمِ العبدِ، كالطلاق أو اللعن أو الظلم، ويقعدُ الشيطانُ الآخر على أُذُنِ المستمعِ فيُسمِعَهُ الكلمةَ على غيرِ الوجهِ الذي خرجت بهِ؛ لتحدثَ الخصومةُ أو الطلاق أو ما يريده عدو الله» ولهذا نصحنا الله بقولـهِ: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ ومقتضى ذلك:

أن نُرجع كلَ شرٍ إليه، فهو مَقَرُّ الشرورِ ومسببهُا بما مكَّنه الله من الأسبابِ، ولو قدَّرنا ذلك لم نَفْتُر أن نستعيذَ بالله من شرِهِ.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة العاشرة

إذا شكرَ القلبُ استكثَرَ ما بينَ يديهِ من النِّعَمِ

الشكرُ من أعلى مقاماتِ أهلِ الإيمان، وهو فوقَ الرضا مع علوِ منزلةِ الرضا كما قرَّرَهُ ابن القيم [مدارج السالكين٢/ ٢٣٢].

الشكرُ عبادةٌ لا تَختصُ بظروفِ الحياة؟

لما ذكر الله نبيَهُ نوحاً وصفَهُ بالشكرِ فقال:﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ مع أن زوجتَهُ كافرةٌ، وابنَهُ غَرِقَ، مما يدلُ على أن الشكر عبادةٌ قلبيةٌ لا تختصُ بالظروف الحياتيةِ، فإيجادُ الله لنا من العدمِ يستحقُ الشكرَ الدائم.

الشكرُ يقودُ لعباداتٍ قلبيةٍ أُخرى:

والشكرُ التامُّ يكونُ بالقلب، فإذا شَكَرَ القلبُ شكرت الجوارحُ، فتَحَدَّثَ اللسان بنعم الرب، وانقادت بقيةُ الجوارح، فإذا استشعرَ القلب شُكْرَ الله استكثر ما بين يديهِ

من النعم، وهذا سبيلُ الزيادةِ من النعم، فالعبدُ يشكرُ والله يزيدُهُ، فيورثُ ذلك العبدَ حياءً من الله إذ ليس عندَهُ من الأعمال ما يستحقُ تَتابُع هذه النعم، فإن زادَ شكرُهُ انتقل إلى منزلة الخوفِ من أن يكونَ هذا التتابعُ من الاستدراج، فانظر كيفَ قادَهُ الشكر إلى أعمالٍ قلبيةٍ عالية؟.

وشكرُ القلبِ للنعم يكونُ بما يلي:

١- بالإقرارِ بها بقلبه وهي أولُ مراتب الشكر.

٢- الاعترافُ بمنعمِها جل جلاله.

٣- ثم العلمُ بأنها محضُ فضلٍ من الله ليست مقابلَ عملٍ منك، بل هي منةٌ من الله لأنه الله.

٤- ثم الفرحُ بها كما يفرحُ العبد بأُعطية سيدِهِ وتخصيصِهِ بِها من بين سائرِ العبيد.

٥- ثم التحدثُ بِها ونشرُها خاصةً فيما يتعلقُ بالدين.

٦- إسنادُها إلى الله وحدَهُ.

المنع يشكر كما يشكر العطاء:

ومن عظيمِ شكرِ القلب؛ أنه يشكرُ الله حتى حالَ المنع، فإذا لم يحصل على مرادِهِ ومبتغاه شكرَ ربَهُ» لأنه حَفِظَ عليه

وقتَهُ فيما لم يأتِهِ، فمن يُلحُ على الله بالحصول على جاهٍ، فكم رَزَقَهُ الله من حفظ الوقت والقلبِ بمنعِهِ؟ فالله يحسنُ على عبده من حيث لا يشعرُ العبد لجهلِهِ وظلمِهِ.

والجمع بين الشكر على السراء والصبر الضراء حالٌ يصعب على الكثيرين كما قاله ابن تيمية (٨/ ٢١٠).

ومن عظيمِ شكرِ القلب: إذا اقترنَ معهُ اعترافٌ بالذنبِ كما في الحديث: «**أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي**» فاعترافُ اللسان فرعُ اعترافِ القلب.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الحادية عشرة

إصغَاءُ القلبِ كإصغاءِ الأُذُنِ

يفهمُ من هذه القاعدة أن القلبَ متى أصغى إلى أمرٍ فلا يُمكنُهُ أن يصغي إلى غيرِه، فالقلبُ المصغي للباطلِ المائل إليه، لا يمكنُهُ والحالةُ هذه أن يُصغِي للحق، كما هو شأنُ الأُذن التي تُصغي لكلامٍ لا تستطيعُ أن تصغيَ لغيره، والأذنُ بريدُ القلب حال الإصغاء.

وكذلك أعمالُ القلب الأخرى، فلا يمكنُ للقلب المنشغلِ باعتقاد الباطلِ والبدع أن يتفرغَ للاعتقاد الحق، ولا يُمكنُ للقلبِ المشتغل باللهوِ والغفلةِ أن يشتغلَ حال ذلك بالعلم والهدى، والقلبُ الممتلئ من محبةِ غير الله والتعلقِ به لا يمكنه أن يمتلئَ من محبةِ الله، ومن انشغلَ بالعلمِ بالمخلوق وما لا ينفعُ لم يكن فيه موضع للعلمِ بالله وأسمائه وصفاته، وكذلك اللسانُ المنشغل بذكرِ الدنيا وأنواعها وأصنافِها والتنافسِ فيها لا يمكنه أن ينشغلَ بذكر الله وما والاه.

وعلاجُ ذلك: أن يُفَرِّغَ قلبَهُ مما أشغَلَهُ بِهِ، فَيُفَرِّغُ إصغاءَهُ من الباطل ويلتفتُ للحق ويصغي لهُ، وينشغلُ بمحبةِ الله حتى يمتلئَ قلبُهُ بذلك، ويشغلُ لسانُهُ بذكرِ الله حتى لا ينشغلَ بالخلقِ، وهذا يجري على كلِ الأعمالِ.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الثانية عشرة

كُلما كانَ القلبُ أكثرَ إخلاصاً كانَ أبعدَ عن عِشْقِ الصُوَرِ

من أشد أمراضِ القلوبِ مرضُ التعلقِ وعشقِ الصور، وهو سُكرُ القلبِ والروح، وإفسادُهُ للقلبِ فوقَ كل إفسادٍ كما ذكره ابن القيم رحمه الله، ولقد ذكرَ الله العشقَ عن طائفتينِ مشركتينِ هما: قومُ لوطٍ وامرأةُ العزيز.

وذلك نتيجةٌ لضعف القلبِ إذ لا بُدَّ له من مُتعلقٍ يُحبُهُ ويتعلقُ بهِ، ولما كان القلبُ المريضُ لا ينظرُ إلا بعينِ الهوى، وكان الهوى يحبُ جمالَ الصُور؛ فإنه يعلق القلبَ بها فيحبُها ثم يعشقُها ولا يزال يردِيها حتى تَهلك، وقد سُئل بعضُ العلماء عن العشق فقال: قلوبٌ غفلت عن ذكرِ الله فابتلاها الله.

وقد عقد ابنُ القيم رحمه الله في (الجواب الكافي) فصلاً عن هذا المرضِ وبيَّن سببَ ابتلاء الإنسانِ به، وليسَ في

عشقِ الصور والتعلقِ فائدةٌ لا في الدين ولا في الدنيا، بل إذا زادَ في القلبِ ولم يتعاهد الرجل قلبَهُ فإنه ينسِيهِ ذكرَ الله، ثم يوقعُهُ في تعكر الفكرِ والذهن، فإن زادَ أوقعَه في الوسواس وشيءٍ من الجنون، وقد جعلَ أهلُ العلم مبادئَ العشقِ والتعلقِ لذيذةً، وأوسَطُهُ همًّا وغمًّا، وآخِرُهُ عَطَبًا.

لِمَ كان الإخلاصُ مُنجِياً من التَعَلُّقِ؟

ومما يُعينُ على الخلاصِ من ذلك أن يكونَ القلبُ أكثرَ إخلاصاً لله، فإن الإخلاصَ هو لُبُّ الأعمالِ كلِّها، والمخلصُ لا يريدُ إلا وجهَ الله، ولا يتحركُ الإخلاصُ في القلبِ إلا حينما تسوقُهُ المحبةُ، فمن أحبَّ أخلص.

ولما ذكرَ الله قصةَ يوسف ذكرَ سببِ نجاتِهِ من فتنةِ الشهوةِ فقال: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف: ٢٤].

فبيَّن الله أن الإخلاصَ هو سببُ النجاةِ من الفتنة والعذاب؛ **لأن المخلصَ أخلصَ حبَهُ لله فأنجاهُ الله** من فتنةِ الشهوةِ، وأخلصَ توحيدَهُ لله فأنجاه الله من العذاب.



الوساوس في باب التعلق والمحبة وعلاجها:

والوساوسُ في هذا الباب كثيرةٌ خاصةً مع ضعفِ العلمِ بأعمال القلوب، فيوهمُ الشيطان العبدَ بمرضِ العشقِ والتعلقِ ليُفسدَ عليه قلبَهُ، وليُدخلَ الحـزنَ عليه كما قـال: ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ومن دَخل عليه الحُزن اختَلَ قلبُهُ واحتارَ ذهنُهُ وتردَدَ فعلُهُ، والعبرةُ بكراهتِهِ لما يُلقي الشيطانُ وهذا دليل سلامتِهِ.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الثالثة عشرة

كُلما رَسَخت أعمالُ القلوب اشتدت الحاجةُ للتوبةِ

هذه القاعدة فرعٌ عن منزلةِ التوبةِ بين أعمال القلوبِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ فقد جعلَ التوبةَ هي غـايةُ كلِ مؤمن ومؤمنـة، وكذلك قولـه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فقد قسَّمَ الناس إلى تائبٍ وظالم، فالتوبةُ إيمانٌ، ومن عِظم منزلةِ التوبة أنها تُدخل الكافرَ البعيدَ الغليظَ في دائرةِ الإيمان، فلا إيمانَ إلا بالتوبة.

ولا تنفكُّ درجةٌ من درجات الإيمان عن التوبة، بل كلما ارتفعَ المؤمنُ في الإيمان وازداد القلبُ من أعمالِهِ اشتدت الحاجةُ للتوبة؛ لأن الشيطانَ تشتدُّ حربُهُ على المؤمن على قدرِ إيمانِهِ والنورِ في قلبِهِ، فكلما كان قوياً أرسلَ له جيشاً من جنودِهِ، ولا تقابَلُ تلك الجنود إلا بتجريدِ التوبة لله، كما



أن العبدَ يحتاجُ دوامَ التحررِ من حولِهِ وقوتهِ في زيادة إيمانه وترقيهِ في مقاماتِ الإيمان؛ ولهذا علَّم النبيُ عليه السلام أبا بكر رضي الله عنه دعاءَ التوبة: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً) لارتفاع درجةِ أبي بكر في مقاماتِ الإيمان فاحتاج إلى توبةٍ عظيمةٍ واعترافٍ بالظلمِ الكثيرِ للنفس.

❖ **وللتوبة متعلقات**: فيتوبُ من ذنوبه التي فعلها، ويتوبُ من اللحظاتِ التي فوت فيها فعلَ الطاعة لاشتغاله بفعلِ المعصية، فإن الله يحاسبُهُ على ذلك، ويتوبُ من تقصيرِهِ في أوامرِ ربهِ التي فعلها، ويتوبُ من غفلتِهِ التي اعترتهُ، ويتوبُ من ظلمهِ لنفسهِ الذي لا بُدَّ أن يواقِعَهُ، ويتوب لأنه لم يعبد الله حقَّ عبادتِهِ وهي أعلى التوبة.

❖ **وحقيقةُ التوبة**: هي الندمُ على ما سلفَ منه في الماضي، والإقلاعُ عنه في الحال، والعزمُ على أن لا يعاودُهُ في المستقبل، فإن تابَ بهذه الشروط فقد رجعَ إلى العبودية فسُمي منيباً، والإنابةُ هي الرجوع.

❖ **ومن الأخطاء القادحةِ في التوبة** – كما قرره ابن القيم [المدارج١ / ٢٠٣]–: أن التائبَ يظنُّ أنه بتوبتِهِ قد أدى

ما عليه فكأنه أعطى لنفسِهِ منشوراً بالأمان، فيجبُ عليه اتهام توبتِهِ، وأن يرجو قبولَ ربهِ لتوبتِهِ على علاتها، وعليه أن يخافَ كلما تذكرَ ذنبَهُ؛ وأكملُ الناسِ توبةً الأنبياءُ عليهم السلام، فإذا طلب منهم الناس الشفاعةَ يوم القيامةِ ذكروا ذنوبَهم، فقال آدم (إن ربي نهاني عن أكل الشجرة) وقال موسى: (إني قتلت نفساً لم أُؤمر بقتلها)، فحرارةُ الذنب لم تفارقهم حتى بعد البعثِ.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الرابعة عشرة

التَفَكُّرُ يُورثُ التَذَكُّرَ وهما يُورثانِ الإنابةَ

هذه القاعدةُ مبنيةٌ على تلازمِ بعضِ أعمالِ القلب بعضها لبعضٍ، وكونُ بعضُها لا يسمى باسم المنزلةِ القلبيةِ إلا بعدَ اكتمالِ أركانِهِ، وغالبُ هذا التلازم يُؤخذُ من كتابِ الله وسنةِ نبيه ﷺ، ومن ذلك: منزلةُ الإنابة فإنها لا تُسمى إنابةً إلا بعدَ مرورِها بمنزلةِ التفكرِ ثم التذكرِ، وقد جمعها قولُهُ تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ وبيان ذلك:

الخطوةُ الأولى: التفكرُ فيتبصر بمواقعِ الآيات والعبرِ من الكونِ والوحي فيستدلُ بها على ربِهِ سبحانه وتعالى، فمن تفكر فيما علاه من المخلوقاتِ أو ما تحتَهُ أو حولَهُ فقد تَبَصَّر.

الخطوةُ الثانية: التذكرُ وهي نتيجةُ التفكرِ الصحيح، فما من تَفكرٍ صحيحٍ إلا ويثمرُ تذكراً سليماً، فتزولُ عنه

الغفلةُ التي تعتري القلب؛ ولهذا سُمي تذكراً لأنه يناقضُ الغفلةَ، فكأن الغافلَ ناسي فأيقظهُ التذكر، ومن وسائلِ التذكر:

١- **استماعُ المواعظ**: لأنها تحركُ خوف القلب، ورجاءه لحصولِ مطلوبِهِ.

هناك علةٌ تَحرِمُ الانتفاعَ بالمواعظ؟

وقد نَبَّهَ ابنُ القيم هنا على عِلةٍ تحرمُ الانتفاع بالمواعظِ على كثرةِ قائلها، وهي: الانشغالُ بعيوبِ الوُعَّاظ؛ لأنه إذا اشتغلَ بالعيوب حُرم الانتفاع، فالنفوسُ مجبولةٌ على عدم الانتفاعِ بكلامِ من لا يعمل بعلمه، ولأجلِ هذه النفرة قال شعيبٌ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾. [المدارج١/ ٤٤٥].

وهي ذاتُ العلةِ التي تُحرم الانتفاعَ بمواعظِ الواعظين في هذا الزمن.

٢- **فهمُ العبرة**: بما يشاهدُهُ من مظاهرِ الحياة وسننها، ففي الحياةِ سننٌ لو تفكرها القلبُ لتذكرَ واعتبرَ وأنابَ،

فكم ظن الإنسان شيئاً ثم تبين خلافه؟، وكم أساءَ ظناً وتبين بطلانُه، وكم من كربةٍ فُرجت؟ ثم نُسيت وغير ذلك من العبر.

الخطوةُ الثالثة: الإنابةُ وهي ثمرةُ التفكرِ والتذكرِ، فيرجعُ لربهِ، وسُميت إنابةً تشبيهاً لهُ بالعبد الآبق الهاربِ من سيدهِ فلما تفكرَ وتذكرَ رَجَعَ إلى سيدِهِ الذي ليس له إلا هو.

تلخيصك للقاعدة:

إنما الخشوعُ خضوعُ القلبِ

من أعلى مقاماتِ أعمال القلوب منزلةُ الخشوع، وقد مدحَ الله أهلَها بقولِهِ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾.

ويعود معنى الخشوع على: خضوعِ القلبِ بين يدي الله سبحانه وتعالى، فأصلُهُ في القلب وفروعُهُ على الجوارح، وتظهر آثارُ الخشوع على الجوارح، فمن خَشَعَ قلبُهُ سكنت جوارحهُ في صلاته، ومن خشعَ قلبُهُ أكثرَ من ذكر ربه، ومن خشعَ قلبُهُ حَفظَ صيامَهُ وهكذا في جميع أعمالِهِ.

ومن الخطأ في منزلة الخشوع:

١- حصرُهُ في الصلاة دون غيرها من الأعمال، وهو عامٌ في جميع أعمال الدين، ومن ذلك قوله: (أن تخشع قلوبهم لذكر الله) وقوله: (والخاشيعن والخاشعات) وإنما وردَ قوله (الذين هم في صلاتهم خاشعون)؛

لأن الخشوعَ في الصلاة أشدُ أثراً على القلب، ويمتدُّ أثرُهُ لما بعد الصلاة؛ ولهذا قال بعدها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ فلما خشعوا في صلاتهم حُفظت ألسنتُهُم عن اللغو في حياتِهم، وعلى هذا ففي الصيام خشوعٌ، وفي الحج خشوعٌ، وفي الزكاة خشوعٌ، وفي الذكر خشوعُ وهكذا سائر الأعمال، ومقصودُ الخشوع فيها أن تُؤدى بخضوعٍ وذلةٍ لله، وأن يعلمَ بقلبِهِ أن حقَ الله عليه أوجبُ من ذلك، وأن عمَلَهُ فيه من النقص ما يستحي أن يُعرض على ربهِ ومولاه، فحالُهُ كحالِ عبدٍ أحضرَ شيئاً لسيدهِ وهو يعلمُ أنه دون حقهِ بكثير، فأتى به ذليلاً معترفاً بتقصيرهِ في الأداء، سائلاً مولاه أن يشفع له ذُلُه ليُقبل منه أداؤه.

٢- الاجتهادُ في تَخَشُّعِ البدنِ والحرص على ذلك، وهذا تفويتٌ للوقت وإضاعةٌ له، فليجتهد المجتهدُ على خضوع القلب، فإذا خشعَ فما أسرعَ خضوع الجوارح.

ويكون الخشوع من خلال:

١- تلقي أوامرَ ربه بذُلٍ، واستشعارُ فقرِهِ لهذه الأوامر والعباداتِ، وأنه هو المحتاجُ لها.

٢- استسلامُهُ لأحكامِ الله وشرعِهِ وعدم المجادلة أو الاعتراض.

٣- مشاهدتُهُ اطلاع الله على قلبِهِ ورؤيتِهِ له، فهذا يورثُهُ الخوفَ منه والخضوع.

٤- إخفاءُ أعمالِهِ التي بينَهُ وبينَ الله؛ لأن ذلك شرطُ حصول الذل.







القاعدة السادسة عشرة

الإخباتُ هو أولُ منازلِ الطمأنينةِ

هذه القاعدةُ تدل على أن أعمالَ القلوب مقسمةٌ إلى مجموعاتٍ، كلُّ مجموعةٍ تشتركُ بالأصل وتختلفُ بالتفصيلات، ومن ذلك مجموعةُ الطمأنينة، فهي تشملُ المنازلَ التالية: السكينةُ، واليقين، والثقةُ بالله، وحسنُ الظن به، والتواضعُ ونحوها، ومن الفقه في أعمالِ القلوب أن يعرفَ المؤمنُ درجاتِ الأعمالِ ليصل لأعلاها.

وكونُ الإخباتِ هو أولُ المنازلِ من خلال:

١- قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ ومعلومٌ أن البشارةَ تكونُ بشيءٍ آتٍ، فكأن المخبتَ تنتظرُهُ أعمالٌ قلبيةٌ عاليةٌ أمامهُ.

٢- كلمةُ الخبتِ تدلُّ على خضوعٍ بعد ارتفاع، فسبقَهَا ارتفاعٌ، فكان الإخباتُ هو التالي للارتفاع، فهو أولُ المنازل، والمقصودُ بالارتفاع هو حالُ الغفلةِ التي كان

العبد عليها، والترددُ الذي عاشَهُ، والبعدُ عن الله، فإذا أنابَ خَبَتَ وهَدَأَ وخَضَعَ.

الآفات التي تعرض للمخبت:

ومن الآفات التي تَعرِضُ للمخبت: كما ذكره ابن القيم [المدارج ٢/ ٨]:

١ – أن يعترِضَ له ما يُبطل عزمَ توبتِهِ وإنابتِهِ لله؛ كأن يشتاقُ لحالِهِ السابقة في المعاصي، أو استكبارِهُ الذي كان عليه وهكذا.

٢- أن يستوحشَ من تَفَرُّدِهِ في الإخبات والإنابة؛ ولهذا وَجَبَ عليه أن يعيشَ الأُنس بالله، والفرحَ به ولو كان بمفردِهِ.

٣- أن تأتيَهُ وارداتٌ وخواطرُ تُفسدُ عليه قلبَهَ وإخباتَهَ، فإن وارداتِ النفسِ شديدةٌ.

ومن مقومات الإخبات ما يلي:

١ – استواءُ المدحِ والذمِّ عندَ نفسِهِ، وسببُ تنصيصهم على ذلك؛ لأن التائبَ المنيب المخبت يَتَلَقَّى كلماتِ المدحِ

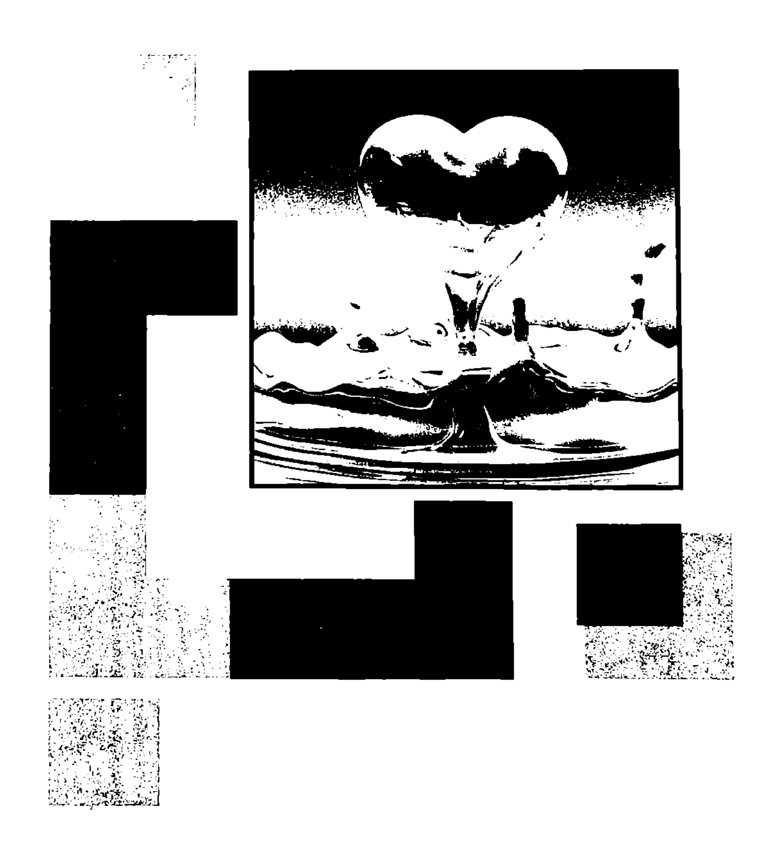


من الناس، كما أنه إذا رأى من كان على مثلِ حالِهِ ربما ذَمَّهُم، فعليه أن يجاهدَ نفسَهُ على ذلك.

٢- أن يلومَ نفسَهُ: لفواتِ نصيبها من الله فيما مضى من عمرِها، وليحذر من لومِها أمامَ الناس، وإنما المقصودُ أن يقومَ ذلك بقلبِهِ حاضراً.

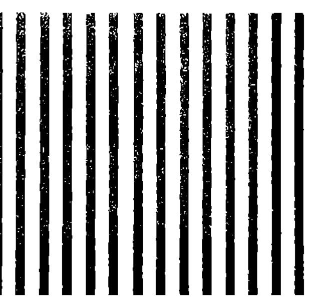
تلخيصك للقاعدة:

قواعد في
أمراض القلوب





قواعد في أعمال القلوب



القاعدة الأولى

أمراضُ القلوبِ أخطرُ من أمراضِ الأبدانِ

لأنَ غايةَ أمراض الأبدان إذا اشتدَّت ولَمْ تُعالج أن تُفضي بصاحبِهَا إلى الموت، أما أمراضُ القلوب فتفضي بصاحبِها إلى عذابِ الله؛ لأن مرضَها قد يصل للكفر أو النفاق، وقد يكون أقلَّ من ذلك فيكون تحت مشيئة الله.

وقد يتأذى البدنُ بمرض القلب فيصابُ بالهم والغم والحزن وغير ذلك، وذلك لارتباط القلب مع الجوارح، وكذلك من سَعُد قلبه ظهرت آثار السعادة على بدنهِ.

أمراض القلب ترجع إلى مرضين:

وأمراضُ القلوب كثيرة وترجع إلى مرضين هما: الشهوات والشبهات.

١- **فالشهوات:** وتشمل فتنةَ النساء والمال والجاه والعلو والاستكبارِ والاستكثارِ واللهو والغفلة.

ومنشأُ الشهوات: الهوى، وقد أصبحت في هذا الزمن أخطرُ من ذي قبل لسهولةِ الوصولِ لها، ولكثرةِ المساس بِها.

أثرُ الشهواتِ على الهمةِ والإرادةِ:

صاحبُ الشهوةُ ضعيفٌ في همتِهِ، فالشهوةُ أولُّ ما تصيبُ الهمة فتضعفَها، ولَمَّا ذكرَ الله قومَ فرعون ووصفهم بالفسقِ قال عنهم: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

ودلالةُ الآية: أنهم لما اتبعُوا شهواتِهم أُورِثوا الخِفَّة في العقلِ والسَّفَهَ في الأحلامِ. ولما سئل يحيى بن معاذ: مَن أصحُّ الناسِ عزماً؟ قال: الغالبُ لهواه، فانظر كيف ارتبطت العزيمةُ بتركِ الشهوة.

ومن أسبابِ إضعافِها للهمةِ أن الشهوةَ تُورثُ الذُّلَّ، فالمتبع لشهوتِهِ فيه ذِلَّةٌ، كما قال وُهيبُ بن الورد: من أحبَّ الشهوات تهيأ للذل، والهمةُ نقيضُ الذل، فلا تجتمعُ في الذليلِ.

وعلاجُها: يكون بالعلم والإيمان، وقد قَرَنَ الله بين الفواحش وترْك الصلاة فقال: ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ فإضاعتُهم للصلاة وهي رأسُ أعمال البدن أضعفَ إيمانَهم، فانقادت أنفسُهم للشهوات.

ومكمنُ الصعوبة في الشهوات أنها تُزَين للنفس كما قال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

فاجتمع على نفسِ المؤمن تزيين الفطرةِ وشهوةِ النفس، فاحتاج إلى قيدِ الإيمان، والإيمانُ قيدٌ، ولما عَلِمَ السلف شدة ذلك على النفس قال مالك بن دينار: (من غلبَ شهواتِ الدنيا فذلك الذي يَفْرُقُ الشيطان من ظلِّهِ) ويشيرُ مالكٌ إلى كثرتِها وشدتِها وندرةِ الغالب لها.

ولما كانت الشهواتُ بتلك المنزلةِ كان أثرُها على القلبِ شديداً، حتى قال الداراني: «**تركُ الشهواتِ أنفعُ للقلبِ من صيامِ سنةٍ وقيامِها**».

٢- **الشبهات**: وهي أشدُ خطراً على القلبِ من الشهوات؛ ولهذا أوصى أهلُ العلم بالإعراضِ عن أهلِ البدعِ خوفاً من حصولِ أصعبِ الأمراض.

ومنشأُ مرض الشبهات: الجهلُ، وأعظمُهُ الجهلُ بالله واسمائه وصفاته، وكذلك الجهلُ بالحقِ ووسائلِهِ، وكذلك الجهلُ بالباطل ومكائدِهِ.

وعلاجُ الشبهات: بالعلم، وأصلُهُ وفرعُهُ ولبُهُ علم

الكتاب والسنة، فمن أخذهُمَا فقد أخذَ بحظٍ وافرٍ من علاج الشبهات.

ومن العلاج: الإعراضُ عن الباطل ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾[الشورى: ١٥].

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الثانية

أمراضُ القلوبِ تختلفُ كما أن الذنوبَ تختلفُ

سبقَ بيانُ أن أعمال القلوبِ تتفاوتُ فكذلك أمراضُ القلوب تتفاوت، ومن ذلك على سبيلِ المثال:

- **أمراضُ قلوب الكافرين ومنها:** مرض التغليفِ، والطبع، والختم، والإغلاق.
- **وأمراضٌ تتعلق بقلوب المنافقين ومنها:** التنكيسُ، والقسوةُ، وغير ذلك.
- **وأمراضٌ تتعلق بقلوب المذنبين من المسلمين ومنها:** الران، أو أن يُنكَتَ فيه نكتةٌ سوداءٌ وغير ذلك.

ولكل مرضٍ وسائلُ شفائه، فالتغليفُ والختمُ علاجه في فتحِ غلافِهِ وانكشافِهِ، والتنكيسُ علاجُهُ في اعتدالِهِ واستقامتِهِ، والرانُ والنكْتُ علاجهُ في تطهيرِهِ حتى يَبرئَ بحولِ الله.



أمراض القلوب يتتابعْ شفاؤُها مثل تتابع أعمال القلوب:

وكما أن أعمالَ القلبِ متتابعةٌ متداخلةٌ يتضمنُ بعضُها بعضاً ويستلزمُ بعضُها البعض الآخر؛ فمن حقَّقَ منزلةً قلبيةً كالمحبةِ فقد استجلَبَ منازل أخرى كاليقين والصدق والتوكل وغيرها، **فكذلك أمراضُ القلوب يتتابعُ شفاؤها** ويتسارعُ حينما يتوجهُ القلب لربهِ، فإذا زال الختم فقد زال الطبعُ، وفُتِحَ القفلُ وهكذا.

وفائدةُ هذه القاعدة: أن يتعلمَ المؤمنُ الفقه المناسبَ لحالِهِ من أعمال القلوب، فبعضُها أنفعُ له في وقتٍ دونَ وقتٍ، وبعضُها تشتدُ الحاجةُ له في زمنٍ دون آخر، ففي زمن تشتدُ الحاجة لليقينِ، وفي آخر تشتدُ الحاجة للخوفِ من الله وهكذا.



القاعدة الثالثة

القلوبُ المتعلقةُ بالشهوات محجوبةٌ عن الله بقدرِ تعلُقِهَا بِها

أحبُ القلوب إلى الله أصفَاها وأزكَاها وأرقَّها وأقوَاها، وهذه أوصافٌ ليست متناقضةٌ بل متكاملةٌ.

فالصفاءُ: لتكشفَ ما وراءَها مما يُداخِلها فيعلمُ العبدُ مواضعَ الخللِ من قلبه.

والزكاةُ: لتسيرَ إلى ربِها بدون انقطاعٍ.

والرقةُ: لتكونَ لينةً لا يحجبها غِلَظٌ، فتنتفعَ بأدنى موعظةٍ وتؤثرُ فيها الكلمةُ الطيبة.

والقوةُ: لئلا تكونَ ضعيفةً تنكسرُ مع أدنى فتنةٍ وشهوةٍ وابتلاء.

فإذا كانت كذلك ابتعدت عن التعلقِ بغيرِ الله، فمتى ما تعلقت بالشهواتِ التي تشتهِيهَا النفسُ - كالمال والجاه

والشهوة والعلوِ والشهرةِ والكبرِ والتسلط - انحجبت عن الله على قدرِ ذلك التعلق، فإذا زادَ تعلقَها بتلك الشهواتِ بذلت كلَ شيءٍ في سبيلِ تحصيلِها، ولو أدى ذلك إلى بذلِ الدين في سبيلِ تحصيل شهوتها، وفي تلك الحالُ لا تنفعُ فيها المواعظُ والذكرُ كحالِ البدن إذا مَرِضَ فلا يزيدُهُ الطعامُ إلا مرضاً.

وعلاج ذلك: أن يزيدَ من محبةِ الله؛ فمتى امتلأ القلب من محبةِ ربهِ فسيضعفُ كل محبوبٍ غيرُهُ، حتى إذا استولت محبةُ الله في القلبِ خرجَ منه كل محبوبٍ سوى الله.





القاعدة الرابعة

أصولُ مفسداتِ القلبِ أربعةٌ

اهتم السلف كثيراً بأعمال القلوب وتفنَّنُوا في ذكرِ أصولِها، ومن ذلك أنهم جعلوا أصولَ مفسداتِ القلب أربعةٌ: الكلامُ والنومُ والأكلُ والمخالطةُ.

فزيادةُ هذه الأصول تفسدُ القلب ونقصانها يفسدُهُ أيضاً، وتخصيصهم الأربعةَ لأنها أكثر ما يمارِسُهُ الإنسان في حياتِهِ وإلا فقد ذكروا غيرَها،وبيان هذه الأربعة:

الكلامُ: فكثرتُهُ تضيعُ الوقتَ، وتجلب له كلامَ السوء، وتوقعه في الجدالِ والمراء، ونقصانُهُ يَحرمُ الإنسان الخيرَ، والاعتدالُ ألَّا يتكلم إلا بما يحبُهُ الله، ولا يسكت إلا فيما يحبُ الله سكوتَهُ فيهِ.

والنومُ: كثرتُهُ تضيعُ العمر، وتفوتُ فرصَ العبادةِ كأجزاء الليل الفاضلة، ويُورثُ الكسلَ، ونقصانُهُ يورثُ المرضَ والانزعاج، والاعتدالُ أن ينامَ ليعطيَ جسدَهُ حظَهُ

الشرعي، وليكونَ أقوى على أداءِ أوامرِ ربهِ حالَ قيامِهِ.

والأكلُ: كثرتُه تورث الكسلَ، وتذهب الفِطنة، وفي الواقعِ المعاصر فُتحت مراكز لعلاج آثارِ كثرة الأكل، ونقصانُهُ يجلبُ المرض، والاعتدالُ أن يأكلَ من حلالٍ، ويشكرَ رازقَهُ، ويحمدَ قبل أكلِهِ وأثناءَه وبعدَه، ويكتفي بما يقيمُهُ على تحقيقِ عبادةِ ربهِ.

والمخالطةُ: كثرتُها تورثُ تشتتَ القلب، وفواتَ طاعات أولى منها، وقد يقعُ بعض المنكراتِ التي لا ينكرها، وقلتُها تُفَوتُ على الإنسان الأجرَ، والاعتدالُ أن يجعلَ مخالطتَهُ في ذاتِ الله نافعاً خلقه، ناصحاً لهم، معلماً ومذكراً.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الخامسة

منشأُ أمراض القلوب أربعةٌ: الكبرُ والحسدُ والغضَبُ والشهوةُ

قرَّر ابن القيم أن منشأَ أمراض القلوب يرجعُ إلى أربعة أمورٍ: الكبر والحسدُ والغضبُ والشهوةُ؛ وذلك لأن منبع الشبهاتِ من الكبر والحسد، ومنبعُ الشهوات من الغضب والشهوة، وعن هذه الأربعة تتفرع أمراضُ القلوب، فمن فَقِهَ المنشأ والباعث عَرَفَ التعاملَ مع نوعِ مرضِهِ، وبيان ذلك:

الكبرُ: يمنعُ الانقيادَ لله، والذلَ له، والاستسلامَ لدينه، ويورثُ رد الحق.

والحسدُ: يمنعُ قبولَ النصيحة، ويشغلُ عن مراقبةِ النفس، والحاسد يعترضُ على قسمة ربه.

والغضبُ: يمنعُ العدلَ، ويورثُ الغلوَ والبطرَ، ويهونُ الحُرُمات.



والشهوةُ: تُشغلُ الذهنَ، وتُضعِفُ الهمة، وتأتي بالفسقِ والسفهِ والرانِ على القلوب.

ويجمعُ هذه الأربعةُ الجهلُ بالله؛ فمن عَرَفَ ربَهُ عَرَفَ نفسَهُ، ومن عرفَ نفسَهُ أدركَ ضعفَهُ وتواضعَ لربِهِ فذهبت عنه أمراضُهُ.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة السادسة

لهوُ القلبِ أصلُ لهوِ الجوارحِ

اللهو القلبي يرجعُ معناه إلى: الغفلةِ واللعبِ، ودليلُهُ قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ فوصف القلبَ باللهو.

ومن آثارِ اللهو القلبي: عدمُ جديته، وكثرةُ هزله، وهذا دليلُ فراغِهِ؛ وتبعاً لذلك يلهو البدن، ويغفلُ عن الدار الآخرة؛ لارتباط البدن بالقلب، وقد يزدادُ اللهو القلبي فيستهزئُ بآيات الله كما هي عادةُ اللاهي الهازل الذي لا يعبأُ بشيءٍ من الجدِّ حولَهُ، واقترن في القرآن (لهواً ولعباً) اقتران السبب ومسببِهِ، أو الأصلِ وفرعِهِ.

آثارُ اللهوِ على القلبِ والجوارحِ:

لما كان اللهو مضراً للقلبِ، ضيَّقت الشريعةُ دائرتَهُ إلا في ثلاثٍ: ملاعبةُ الرجل أهلَهُ، وفرسَهُ، ورميَهُ بقوسِهِ، فالشريعةُ وجَّهت اللهو إلى ما فيه فائدة، فكأن الأصل عدم فائدتِهِ، والأصل ضررُهُ على القلبِ، وهو لا يصدرُ إلا من



قلبٍ لاهٍ، فالعلاقةُ والأثرُ متبادلٌ بين القلبِ والجوارح، فالقلبُ اللاهي يصدرُ عنهُ لهو الجوارح، ولهوُ الجوارحِ يزيدُ من لهوِ القلب، ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبعدَ الناس عن اللهو، ومجلسهُ مجلسُ جدٍّ ونشاطٍ وهمةٍ.

وتتعدى آثارُ اللهوِ القلبي إلى جلبِ أمراضٍ قلبيةٍ أخرى يكون اللهوُ أصلُها، ومن ذلك:

١ـ الغفلةُ.

٢ـ الإعراضُ.

٣ـ الإطمئنان للدنيا، وقد قرن الله بين هذه الثلاثة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

٤ـ ثم يتبعُهُ الطبعُ وهو آخر آثار الأمراض القلبية، وقد قرن الله بينهما بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ وذَكَرَ السمعَ والبصرَ؛ لأن اللهو تَعدَى من القلبِ إليهما، فلا يبصرُ إلا لهواً ولا يسمعُ إلا غفلة.

وقد تقرَّر سابقاً أن أعمالَ القلوبِ تورثُ النشاط والجدَّ، فاللهو يورثُ العجزَ والكسل، ففي الواقعِ تجدُ الهازل أبعدَ ما يكونُ عن الجدِّ، فكذلك القلبُ اللاهي، وينبغي أن يُعلم أمران:

١ـ أن لذةَ العابد في عبادتِهِ، والذاكرِ الله حال ذكرِهِ أعلى من لذةِ اللاهي في لهوِهِ.

٢ـ أن الملائكةَ لا تحضرُ مجلسَ لهوٍ باطل، ولذلك تتسلطُ الشياطينُ على القلب وتتفردُ بالاجتماعِ عليه، وهذا أحدُ لطائفِ قوله: (﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ فالشياطينُ تزعجهُم وتحركُهُم لابتعاد الملائكة عنهم.







القاعدة السابعة

مريضُ القلبِ يدركُ الأشياءَ على خلافِ ماهيَ عليهِ

لما كان مريضُ البدنِ قد يكرهُ ما فيه نفعُهُ من الأغذية والأدوية، وقد يحبُ مافيه ضررُهُ؛ وذلك لمرضِهِ واعتلالِهِ؛ فإن مريضَ القلب يفسدُ إدراكُهُ ويرى الأشياءَ على خلافِ حقيقتِها، فيظنُ أن لذتَهُ فيما فيه زيادةُ مرضِهِ، وقد يكره مافيه شفاؤُهُ

آثار المرض على القلب:

ونتيجةً لمرضِهِ فإن القلب يحدثُ فيه خطران هما:

أ) زيادةُ مافيه هلاكُهُ من أمراض القلب: كمن تعلقَ بغيرِ الله واعتمدَ عليه، ولم يتب لربهِ فإنه يزدادُ من هذا المرض الذي فيه هلاكُهُ، **فيحتاجُ إلى استفراغٍ** وتوبةٍ وإنابةٍ ورجوعٍ لله حتى يتخلصَ من مرضِهِ، وكذلك مَن مرضهُ مرَضُ جهلٍ ثم ازدادَ من علومٍ لا تنفع القلبَ بل تضرهُ، فيزدادُ مرضهُ.

ب) نقصانُ مافيه حياتِهِ: فكلما مرَضَ القلبُ نقصت منه

أعمالُهُ التي فيها زكاتُهُ؛ فمن تعلقَ بغير الله نقصت محبتُهُ لله وهكذا، فيحتاجُ إلى غذاءٍ قلبي يرجِعُهُ لعبوديتهِ واستقرارِهِ.

ومن مصائبِ أمراضِ القلوب: أن القلب لا يُحِسُ بألمِ المرض، بل قد يتلذذُ بهِ كما يتلذذُ الجاهل بالهوى، وهذا أصعبُ الأمراض علاجاً؛ لأن الدافعَ على العلاجِ غالباً هو الألمُ الذي يزعجُ صاحبَهُ، فإذا انتفى الألمُ أو انقلبَ لذةً فمتى يتم علاج هذا القلب؟!.

وقد يُحس القلبُ بالألمِ لكن لا يريد مرارة الدواء، وألم الجرح، فهو يعلم أن علاجه وشفاءهُ بالتوبةِ لكن لأنها تحولُ بينه وبين شهوتهِ فهو لا يريدُها.

قد يزدادُ مرضُ القلب ويفسدُ إدراكُهُ حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً ويكونُ القلب بذلك قد انتكسَ، فلا تؤثرُ فيه المواعظُ والزواجرُ من حولهِ، **وضابطُ فساد الإدراك من عدمهِ للقلب**: إقبالُهُ على الآخرة أو تعلقُهُ في الدنيا، فمتى تشافى القلبُ فإنه سيتقدمُ خطوةً للآخرة، ويبادرُها بأعمالهِ، ومتى مرضَ تأخر خطوةً للدنيا.

وأولُ علاماتِ شفاء القلبِ أنه يُزعج صاحبهُ ويؤنبهُ



طلباً للرجوع لربِهِ وهي أولُ مراتبِ المحاسبةِ، ثم تزداد محاسبته لصاحبهِ حتى يحيا.

مريضْ القلبِ يتأذى مما لا يتأذى منه الرجلْ الصحيحْ:

مريضُ القلب يتأذى مما لا يتأذى منه صحيحُ القلب؛ ولهذا كانت الفتنةُ زيادةً لمريضِ القلب كما قال: ﴿ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾، كما أن مريض القلب يُفتنُ بالفتنة اليسيرة وذلك لضعفِ قلبِهِ، أما صحيحُ القلب فتزيدُهُ الفتنُ ثباتاً وقوةً.

وانظر لقصة الأحزاب، تجد فئتين هما:

مرضى القلوب قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾.

أصحاء القلوب قالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فتأذى أهل المرض مما لم يتأذَّ منه أهل الصحة.





القاعدة الثامنة

القرآنُ شفاءٌ لكلِ أمراضِ القلوب

أنزلَ الله كتابه شفاءً للناس كما قال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ وشفاؤه لكل أمراض القلوب.

فيشفي من أمراضِ الشبهات: بأنه يعطي قارئهُ التصورَ الصحيح للدنيا والآخرة والعبودية.

ويشفي من أمراض الشهوات: بزواجرِهِ وترهيبهِ وترغيبهِ.

على قدر قرب العبد من الوحي الرباني يكون شفاؤه، فمن اقتصر على قراءته مع العملِ به ليس كمن قرأَ وتدبر وعملَ، وكلما كان العبدُ أبعد عن كلامِ ربهِ كلما سَهُلَ عليه دخولُ الأمراضِ إليهِ.

القلبُ الممتلئُ قرآناً والقلبُ الخالي:

ومرضُ القلب إذا لم يجد في القلبِ قرآناً يُتلى ويتدبر فإنه يفتكُ فيه، وسرعان ما تخرج الأمراض بعد التزود من

القرآن، فصاحب القرآن أسرع الناس شفاءً حال مرضِ قلبه، وأضعف الناس من حيث تأثير المرض عليهِ ببركةِ القرآن.

قرر ابن القيم رحمه الله بأنه (ما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه) زاد المعاد (٤/ ٣٥٢).

وهو بهذا التقرير يعمم شفاء القرآن لجميع الأمراض وليس للقلوب خاصة، ولا عجب من ذلك؛ إذ أن القلب إذا عُوفي وشُفي عادَ أثرُ عافيتهِ على البدن، **والقرآنُ كلُّهُ شفاء حتى قراءته بدون تدبر**، فإنَّ التزودَ من القرآن طردٌ للمرض، فإن كانت القراءةُ بتدبرٍ كان نفعُها أشدُ في إزالةِ آثار المرضِ، فإن للمرضِ آثاراً في القلب حتى بعدَ شفائهِ، كما يكونُ هناك آثارٌ لبعض الأمراضِ على البدن حتى بعدَ شفائهِ.

تلخيصك للقاعدة:

علامةُ مرض القلبِ ذهابُ تَألُمِه

كلُ مرض من الأمراض له علامةٌ توضحهُ وتبينهُ، ومن خلال تلك العلامة يستطيعُ الطبيب العلاج، وكذلك أمراضُ القلوب لها علامات، وتكلَّم عنها أهل العلمِ كثيراً، ومن أبرزِها: ذهابُ تألمِ القلب من فعل الذنوب.

فالمرضُ يسببُ الألمَ في بدايتهِ، فالجهلُ يسبب للقلب الألمَ لفوات العلم، وهكذا يشتدُ المرضُ حتى يذهبَ الألمُ ويستمرئُ العبد حالتَهُ، ويألفَها، ثم يشتدُ فينكرُ ما عداها، ومن أشدِّ بلايا أمراض القلوبِ أن القلوب قد تمرضُ وتموتُ وصاحبُها لا يشعرُ بِها كما قال تعالى: ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

وهذا يكونُ حينما تستولي الغفلةُ على القلب، وبهذا نعرفُ أن القلب الحي هو القلبُ الذي تؤلمهُ معصيتهُ وخطيئتهُ.

وهذا الألمُ من رحمةِ الله على عبدِه، وهو نتيجةُ (واعظُ الله

في قلب كلِ امرئٍ)، وهذا دليلٌ على أن القلبَ بفطرتِهِ ينفرُ من المعاصي؛ لأنها ليست غذاؤُهُ.

ومن علاماتِ المرض أيضاً دون ذلك: انصرافُها إلى ما يؤذيها، ويزيدُ مرضها كحال المتعلق بغير الله فيرى أن شفاءَه في مواصلةِ عشقهِ، بينما هو يسير في هلاكِ قلبهِ، ومن ذلك انصرافُ القلب إلى ما حرَّم الله وتَتَبُّعِهِ لذلك، وهو ما أوضحهُ الله بقوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فلا يزال في قلبه طمعٌ فيما حرَّم الله، فيكون علاجُهُ: اليأسُ من مرادِهِ.





القاعدة العاشرة

مدارُ اعتلال القلوب على أصلين: فسادُ العلمِ وفسادُ القصدِ

تتنوعُ نظرةُ العلماء في إرجاعِ أصولِ فساد القلوب، ولا تعارضَ بينها لتعددِ جهات النظر، ومن ذلك أن ابن القيم قرَّر أن أصلَ اعتلال القلوب يعود إلى أصلين هما:

الأول: فسادُ العلمِ: وهذا يورثُ الشبهات إذ يرى الحق بغيرِ نورِهِ، ويرى الباطل على غيرِ ظلمتِهِ؛ وأصلُ ذلك جهلُه بالحق؛ ولهذا أوجبت الشريعة العلمَ وطلبَهُ وجعلت السعي في تحصيلِهِ عبادةً قبل تحصيلِهِ، ووضعت الملائكةُ أجنحتها لطلبتِهِ لسعيهم في تصورِ الحقِ على حقيقتِهِ.

الثاني: فسادُ القصدِ: وهذا يورثُ الشهوات؛ لأن فسادَ القصدِ يفسدُ العمل، بحيث يبغضُ الحق، ويحبُّ الباطل ويسعى له مع معرفتِهِ لبطلانِهِ، وأصلُ ذلك اتباع الهوى؛ ولهذا أصبحَ أعلى منازلِ الإيمان أن يجعلَ العبدُ هواه تبعاً لما جاء به الحقُّ.



وبهذا يكونُ العلاجُ قائماً على أمرين: معرفةُ الحق واتباعِه، وقد كان من دعاءَ النبي ﷺ: «اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه».

تلخيص للقاعدة:

القاعدة الحادية عشر

دواءُ الرياءِ بـ (إياك نعبد)، ودواءُ الكبر بـ (إياك نستعين)، ودواءُ الجهل بـ (اهدنا الصراط المستقيم)

هناك ثلاثةُ أمراض تعتري القلب وتفسدُهُ أيما إفساد، وهما: الرياءُ والكبرُ والجهلُ، وكل الثلاثة أساسُها رؤيةُ النفس، فالرائي لنفسِهِ المعظِّمِ لها متكبرٌ على الناس وهو المرائي، أو على ربه وهو المتكبر، أو مدعٍ ماليس لها وهو الجهل.

فالرياءُ: هو العمل لأجل رؤيةِ الناس، ومنشؤهُ من محبةِ غير الله، ويبدأُ خفياً ثم يكبرُ حتى يقعَ في النفاق الأكبر، وعلاجُ ذلك بالاستعانةِ بالله، وتجريدُهُ بالقصد والطلب، فلا يريدُ إلا الله، ولا يقصدُ إلا وجهَهُ، كما قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. وهذا أسلوبُ قصرٍ وحصرٍ فلا يُعبدُ إلا الله.

والكبرُ: وهو رؤيةُ النفس والإعجابُ بها واحتقارُ

غيرِها، والاعتمادُ على حولِها وقوتِها، وعلاجُ ذلك بتجريدِ الاعتماد، فلا يعتمدُ إلا على الله، ويرى أن نفسَهُ جاهلةٌ ظالمةٌ عاجزةٌ كما قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥].

فلا غنى للعبدِ عن إعانةِ الله.

والجهلُ: وهو فسادٌ في التصور، والعبدُ يُطلب منه معرفةُ تفاصيلِ الحق والعمل بذلك، فلكلِ وقتٍ فريضةٌ يحتاجُ معها لهداية ربهِ؛ ولهذا اشتدت الحاجةُ لتكرار﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في صلواتِ العبد.

وهذه الثلاثة مِن: نفخِ الشيطان ونفثِهِ وهمزِهِ، وقد أُمرنا بالاستعاذةِ منها.





القاعدة الثانية عشر

علامةُ موتِ القلبِ عدمُ قبولِ الحقِ والانقيادِ له

القلبُ الميت علامتُهُ: عدمُ قبول الحق والانقيادِ له، وإذا زاد موتُهُ فإنه يبغضُ الحقَ ويكرهُهُ، كالجسد الميت الذي لا يُحسُ بلذةِ طعامٍ وشرابٍ وألم.

ولا يموتُ القلب إلا بعد أن يمر بعدةِ مراحل هي:

١- **قسوةُ القلب**: بأن يشتدَ ويصلُب، فلا يقبلُ صورةَ الحق، ولا ينكتبُ فيه الإيمانُ لصلابتهِ، كالحجرِ الصلبِ الذي لا يُكتب عليه، وقد قَرَنَ الله بين الكفرِ وقساوةِ القلبِ فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾.

٢- **ثم الختمُ على القلبِ**: بأن يوضعَ عليه خاتمٌ، فلا يُفتحُ ولا يدخلُهُ شيءٌ من العلمِ والهدى كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

٣- **ثم الطبعُ**: وهو يشارِكُ الختمَ، إلا أن الطبعَ صار سجيةً وطبعاً له.

٤- **ثم القفلُ**: وهو الإغلاقُ بحيث يُغلَقُ على تلك القلوبِ على ما فيها من شرور.

ويمكنُ جمعُ أمراض القلوب من الكتاب والسنة والنظرُ في معانيها وسياق الآيات الواردةِ فيها وبالتالي معرفة ترتيبها، وقد اجتهد السلف في ذلك كما أخرجه البيهقي عن مجاهد قوله (٧٢١٠): (الرين أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك) والله أعلم.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الثالثة عشر



أثبتَ الله عمى القلب وهو دليلٌ على ذهابِ نظَرِه

قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الحج: ٤٦].

دليل على أن القلوب تعمى، وعماها بذهابِ بصرِها الذي تبصرُ به، فالقلبُ يبصرُ ويشاهد، فإن مرضَ صارَ عليه غشاوةٌ، فإن زادَ مرضُهُ أصابَهُ العمى فلا يبصرُ الحق والهدى.

ما الحكمةُ من نفي العمى عن الأبصارِ؟

ومن شدةِ عمى القلب فإن عمى الأبصار إذا ما قُورن به لا يُعد شيئاً، ولهذا نفاه الله بقوله: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [الحج: ٤٦].

فالنفي ليس لوجودِهِ إنما لإثباتِ كمالِ عمى القلوب، إذ العمى الحقيقيُ للقلوب، فإن عمى الأبصارِ يستطيعُ صاحبَهُ أن يعيشَ حياتَهُ ويعرفَ طريقَهُ، أما عمى الأبصار

فلا يَرى الحقَ الواضحَ فيتخبطُ في طريقِهِ كما قال: ﴿يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ [الملك: ٢٢]..

يريد أن يتعرفَ على الطريقِ لكنه لا يجدُ المعالم التي تهديه، وقوله:﴿ مُكِبًّا﴾ يشعرُ بقربِ سقوطهِ إن لم يرفع بالهدى رأسَهُ.

وعلاجُ عمى القلب يكونُ بتعاهدِ نظرِ القلبِ عن الغشاوة، وتطهيرِ عينِ القلب عن الدنسِ والذنوب، فإن الذنوبَ والخطايا لا تزالُ تضعفُ بصرَ القلبِ وبصيرتَهُ حتى تَلتبسَ عليه الأمور.

تلخيصك للقاعدة:



القاعدة الرابعة عشر

من أمراض القلب ما لا يشعرُ بَه صاحَبُهُ

الأصلُ أن يشعرَ الإنسانُ بأمراض البدنِ، وأن يحددَ مكانَها، إلا أن أمراض القلوبِ تختلفُ عن ذلك، فمنها ما يشعرُ به صاحبهُ، ومنها مالا يشعر به، وقد يصلُ به المرض إلى الموتِ وهو لا يشعر، وهذا مَكمَنُ خطورتِها واختلافِها عن أمراضِ البدن.

ما يشعرُ به صاحبُهُ: هذا غالباً يكون في بدايةِ مرض القلب بعد أن كان حياً ثم قطعَ عنه صاحبُه مادةَ صلاحِهِ، فيضعفُ القلب، ويتألَمُ بالهمِ والغم، ويؤنبُ صاحبَهُ، وهذا من آثارِ رحمةِ الله بعبدِهِ إذا جعل له رقيباً من نفسِهِ يناديه، وهو واعظُ الله في قلبِ كل مسلم، مالم يمت هذا الواعظُ بالمعاصي واستمرارها.

مالا يشعرُ به صاحبُهُ: كالجهل واتباع الهوى، فلا يزال به المرضُ وفسادُ القلب حتى يموتَ.



ومن هنا اشتدَ السلفُ في تعاهدِ النفس من أمراضِ القلب، والخوفِ من النفاق كما في قصةِ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فعلى العبدِ إدمانُ الاستغفارِ لبقاءِ قلبِهِ حياً يتألمُ حين انصرافِهِ عن ربهِ، ويؤنب ضميرَ صاحبِهِ.

إزالةُ تأنيبِ الضميرِ في الواقعِ المعاصر:

أخطرُ ما يوجد في الواقعِ المعاصرِ محاولةُ إزالةُ تأنيب الضمير، بتهوينِ المعاصي والذنوب، ثم تبريرِها بالحججِ، وقد يقعُ الذنب من العبد فيغفرُهُ الله بأهون أسبابِ المغفرة، لِمَا قام في قلبِ صاحبِهِ من الانكسارِ والحياءِ، وقد يَعظُم الذنبُ الصغيرُ عند الله بسبب ما قامَ في قلبِ صاحبِهِ من التعالي على الله، والجسرةِ على حرماتِهِ بلا مبالاةٍ.



القاعدة الخامسة عشر

الفتنُ التي تعرضُ على القلوبِ هي أسبابُ مرضِهَا

قول النبي ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عَرْضَ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ قَلْبٌ أَبْيَضُ مِثْلَ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَيَصِيرُ الآخَرُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاه» [رواه مسلم برقم (١٤٤)].

هذا الحديث يفيدُ أن الفتن تُعاد وتتكررُ على القلوب ابتلاءً واختباراً لها، والمرادُ بالفتن كلُ ما يُسببُ فتنة القلبِ، وأصلُها في الشبهات والشهوات.

ويجمعُ الفتنَ التي تعرض قولُه: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ



ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ ﴾ [التوبة: ٦٩].

فذكر:

أ) الاستمتاع بالخلاق: وهو متضمنٌ للشهوات.

ب) الخوض وهو: متضمنٌ للشبهات.

وعلى هذا يجبُ الحذر من تتابعِ الفتن في الزمن المعاصر التي تعصفُ بقلبِ المسلمِ فتصيبُهُ بالجراحات.

والسلامةُ من ذلك بتربيةِ النفسِ على التوحيد، والعملِ الصالح، وإدمانِ الاستغفار، فإن وُرود الفتنِ على قلبٍ مريضٍ تجعلُهُ يسارعُ في مرضِهِ وفتنتِهِ.



القاعدة السادسة عشر

الذنوبُ تُنقِصُ أعمالَ القلوب، والتوبةُ الصادقةُ إما أن تُرجِعَ العبدُ لحالِهِ السابقةِ أو ترفعُهُ فوقَها

تقرَّر أن الذنوبَ تُنقص أعمالَ القلوب، والذنوبُ للقلوبِ كالأمراضِ للبدن، فلا بُدَّ أن تؤثرَ فيهِ، فإذا تابَ العبدُ وأنابَ، ورجعَ لمولاه بقلبٍ صادقٍ، وتوبةٍ نصوحٍ فإما أن يعود المؤمن لما كان عليهِ من حالهِ قبل التوبةِ فيٍ منزلة الإيمان، وإما أن يرتفعَ فوق ذلك، وسببُ الاختلاف بين الحالتين:

المقارنة بين شدةِ الذنبِ وصدقِ التوبة، فإذا كان الذنبُ شديداً وَقْعُهُ، وصَاحَبَهُ استخفافٌ بأوامر الله وتهاونٌ بها، احتاجَ إلى توبةٍ نصوحٍ ليعودَ إلى ما كان عليه قبلَ الذنب، فإذا كانت توبتُهُ أصدقَ وأكثر إخلاصاً وإنابةً رَفَعَهُ الله فوقَ منزلتِهِ السابقة؛ ولهذا كان حالُ الأنبياءِ بعدَ توبتِهِم أفضلَ من حالِهِم قبلَ ذلك، ويعودُ فقه ذلك إلى صدقِ التوبة، ومعرفة ميزانِ الذنب، والله عدلٌ سبحانه.



مَن التائبُ الذي يفرحُ اللهُ بتوبتهِ؟

وبعضُ الصحابة لَمَّا ارتكبَ الذنب قال: (هلكتُ) (احترقتُ) (يدعوا ويلَهُ) وهي ألفاظٌ تدل على الانكسارِ والذلِّ الحاصل بعد مواقعةِ الذنب، وهذا هو الذي يفرحُ الله بتوبته؛ إذ حالُهُ حال عبدٍ خالفَ أمرَ سيدِهِ لغلبةِ هواه لا تكبراً على السيدِ، وصَاحَبَهُ أثناءُ ذلك حياءٌ من اطلاع السيدِ عليه، ومحاولةُ استخفاءٍ عنه، ولم يهرب عن سيدِهِ لآخر، فما أسرعَ توبةَ هذا العبد وما أحلمَ السيد عنه، فإذا صحت توبتُهُ رفعَهُ سيدُهُ فوقَ المنزلةِ السابقةِ، وعفا عنه زلَتَهُ لِما شاهدَهُ من حالِ عبدِهِ.

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة السابعة عشر

أمراضُ القلوبِ منها ما يكونُ بسببِ الذنوبِ ومنها ما يكونُ عقوبةً من اللّه

قرَّر ابن تيمية رحمه الله في التحفةِ العراقية: أن ما يقعُ في القلب من مرضٍ قد ينشأُ بأحد سببين:

الأول: ذنوبٌ يقع فيها العبد، وقد تقرَّر أن الذنوب تُمرِضُ القلوب، فمريضُ القلب يظن أن شفاءه فيما فيه مرضُهُ على الحقيقة، ولهذا يزدادُ من الذنوب والخطايا ظاناً أن في ذلك شفاءَهُ، والذنوب كالماء المالح لا يروي الضمأ ويزيد العطش، والسيئةُ تدعو أختها، والحرماتُ تقودُ للحرمات، ولا تزالُ الملائكةُ تبتعدُ عن المذنب والشياطينُ تقتربُ منه حتى يواقعَ ذنباً آخر بحثاً عن لذةِ قلبِهِ.

الثاني: عقوبةٌ من الله كما قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾ [البقرة: ١٠].

فكان مرضهم اللاحق عقوبةً على مرضٍ سابق لم يُطهِرُوا أنفسِهم منه.



وكقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

فكانوا أسبقَ في الزيغِ ثم جاءت عقوبتُهم من جنسِ مرضِهِم، وكلا السببينِ خطيرٌ، إلا أن المرض حينما يكون عقوبةً فهو أشدُ خطراً.

وفائدة هذه القاعدة:

وهذه القاعدةُ تجعلُ الإنسان يسعى بتطهيرِ نفسِهِ من أمراضِ القلوبِ حتى لا تأتي العقوبةُ من جنسِها، والله عدل سبحانه.



القاعدة الثامنة عشر

مريضُ القلبِ تَتَسلطُ عليه الشياطينُ بحسبِ مرضِهِ

العبدُ يكتنفُهُ شيطانٌ وملَكٌ، كلٌ يُمدِهُ بمادتِهِ، فالقرينُ يمدهُ بالظلمةِ، والمَلك يمدُهُ بالنور، فإذا كان القلبُ مريضاً تسلطت عليه الشياطينُ لابتعاد الملائكةِ عنه، فلا يجتمعُ ملَك وشيطانٌ.

تَسلُّط الشياطينِ حسبَ شدةِ المرضِ:

ويكونُ تسلط الشياطين على القلبِ المريضِ بحسب مرضهِ، فكلما كان المرضُ مستحكِماً شديداً كان التسلطُ أشدُ، فإذا أظلمَ القلب بالكليةِ وانتقل العبدُ للكفرِ، وانطفأ نورُهُ عند ذلك تسكنُهُ الشياطينُ، وتستقرُ فيه، ومن تسلط الشياطين أنها تأمرُهُ بالمنكر وتزينهُ في عينه، وتُذهِبُ ألَمَهُ عن قلبِهِ، ولا تزالُ تتابع عليه حتى تُوهِنَ قلبَهُ وتضعفَهُ.

يدلُ لهذه القاعدة قوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].



كما يستنبطُ من الآيةِ الكريمة أن ذِكر الله يطردُ الشياطين فلا تتسلطُ.

وفي الزمنِ الذي تكثرُ فيه المعاصي والذنوب والفتنُ تكثرُ الشياطينُ.

تسلط الشياطين في الزمن المعاصر:

وفي الزمن المعاصر تكثرُ خصومات الأزواج، وحصولُ الطلاق، وقضايا القتلِ، وانتشارُ الفُحشِ؛ وتنوع المنكرات؛ لتَدَخُل الشياطين في كثيرٍ من الأمور، فإنها تستعملُ العبدَ نوعَ استعمالٍ، وما أبعدَ ذلك عن المجتمعِ المؤمنِ الذي تخالطهُ الملائكةُ، ولا يُعترضُ على ذلك بالمجتمعاتِ الكافرة، فإن ذنوبَها أشد من المجتمعات المسلمةِ كالانتحار مثلاً، إضافةً إلى أن الشيطانَ رضي منها الكفرَ.





القاعدة التاسعة عشر

الحسدُ مرضٌ غالبٌ من أمراضِ القلوب

الحسدُ هو تمني زوالُ النعمة من الغير، ومنشؤُه كراهيةُ ما يراه الحاسدُ من حالِ المحسود، وهو كثيرٌ مع الناس حتى أهلَ الخيرِ والصلاح منهم، وهم أقربُ إلى الاستجابةِ لدين الله بتركِ الحسد، وما خلا جسدٌ عن حسدٍ لكن الكريم يخفيه واللئيمَ يبديهِ.

الحاسدُ يتلذذ بزوالِ نعمة غيرِهِ وإن لم ينتفعْ بهذا الزوال، وقد نهى النبيُ ﷺ عن الحسدِ بقوله: «**ولا تحاسدوا**»وصيغة «**تفاعلوا**» تدلُ على المفاعلةِ بين اثنين والمشاركة، فنُهي الحاسدُ عن ابتداءِ الحسد ونُهي المحسود عن مثلهِ.

الذنوبُ القلبيةُ التي وقعَ فيها الحاسدُ:

الحاسد وقعَ بعدَّةِ ذنوب قلبية: الاعتراضُ على حكم الله، وكراهيةُ أخٍ مسلم، ووقوعُهُ بالظلم، ونقصانُ الرضا القلبي، وتعلقُ القلبُ بغير الله، وعدمُ الانقياد للشرع،

والحسدُ نوعُ معاداةِ لله في أفعالِهِ؛ لأنه يكره نعمته على عبدِهِ، ووقع في الغل والغشِ، ومن حَسدَ فقد شابه إبليس؛ لأن امتناعهِ عن السجود إنما كان حسداً، **وهذا من العقوباتِ القلبية** أن الحسدَ جرَّهُ إلى محرماتٍ آخرى، فيظلمُ غيرَهُ باعتراضِهِ على نعمتِهِ، وانتقاصِهِ تشفياً لغيظِهِ.

ومن عقوباته: أنه يطفئ نور الحسنات لأنه يأكلها فتصبحُ مظلمةً، والمحسودُ مبتلى مأمورٌ بالتقوى والصبرِ على الأذى، ويجبُ نصرتُهُ إحقاقاً للحق.

أكثر ما يقع فيه التحاسد:

أكثرُ ما يتحاسدُ الناس عليه هو بسبب المالِ والجاه؛ ولهذا يقعُ الحسدُ على العلماءِ لما لهم من الجاه الذي تَصدَرُوا بِهِ.

توجيه قوة الحسد:

وقوة الحسدِ التي لا يخلو منها جسدٌ على العبدِ صرفُها إلى التنافس في الخير والعلم، ويبقى عليهِ مجاهدةُ النية، ومجاهدةُ النية في فعلِ الخيراتِ أسهل من وقوعُ الحسد في قلبهِ.

يقوم علاج الحسد على: أن يُعَمِّي الحسد في نفسه، وأن

يُبرِّكَ للمحسود، ولْيكرَه الحسدَ من نفسِهِ، وليتقِ الله في قولِهِ وفعلِهِ فيفعلُ ما يأمره الله به مع المحسود، وأن يربي نفسَهُ على الرضا بحكمِ الله وقدرِهِ.

ولَمَّا كان أشدُّ حالاتِ الحاسد هي حالة تلبسِهِ بالحسد إذ انبعثَ من عينِهِ ونفسِهِ؛ لأن الحسدَ كالنارِ تُرسلُ على المسحود، لَمَّا كان كذلك أمرنا الله أن نستعيذَ من تلك اللحظةِ التي مُلئت شراً فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الفلق: ٥.

فـ(إذا) تفيدُ تلك الحالةَ، وهذا كقوله:﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ فأشد ما يكون شر الغاسق حين وقوبه ودخوله، فاستعذنا بالله من شر تلك اللحظة التي بعدها إنما هو من آثارها.

كما يفيدُ قوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ أن الحسدَ موجودٌ في الجسد لكنه لا يضرُ إلا إذا أثاره الحاسد.

تلخيصك للقاعدة:





القاعدة العشرون

الهوى يُفسدُ التصُّورَ والإرادةَ

القلبُ له إرادةٌ وتصورٌ، هما قُوامُ حياتِهِ، وغالبُ أمراضِ القلب تُفسِدُ أحدَ هذين الأمرين، فالرياء مثلاً يفسدُ الإرادة، والجهلُ يفسد التصورَ، إلا أن اتباع الهوى يفسدُ الأمرين جميعاً، فإذا اشتدَّ عُبد من دون الله كما قال: ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولم يجعل الله شيئاً من أمراض القلوبِ بمنزلةِ الإله إلا اتباع الهوى؛ لأنه يوافقُ النفسَ، ومن تَسَلُّطِ النفس أنها تُصور الهوى أحياناً في صورةِ مصلحة، فإذا ضَعُفَ القلب بررَّت له بأدلةِ الشرع صحةَ ما يهواه.

إفساد الهوى لأعمال القلوب:

الهوى يفسدُ محبةَ القلب، وهذا من خطورتهِ، أنه يصلُ إلى أعلى مراتبِ الأعمال القلبيةِ وهو المحبة فيفسدُها، فيحبُ

ما فيه ضررٌ في محبتهِ، ويبغض ما فيه نفعٌ له ديني، وقد قرنَ الله بين الطبعِ واتباعِ الهوى فقال:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٦- ١٧].

فإما أن يكونَ اتباع الهوى من أسبابِ طبعِ القلب، لكن تقدَّمَ في الآيةِ من باب تقديمِ النتيجةِ على سببِهَا تحذيراً منها، وإما أن يكونَ اتباع الهوى من آثارِ طبعِ القلب، فمن طُبعَ على قلبِهِ اتبع هواه، وهما متلازمان.

ومن أضرار الهوى على أعمال القلوب أنه يطمس: نور العقلِ، وبصيرةَ القلب؛ ولهذا إذا اتبع العبد هواه فَسَدَ رأْيُهُ، وعُمي قلبُهُ.

ومن أضرار الهوى على القلب: أنه يُسبب نشاطاً للقلب، فينشطُ القلب في تحصيلِ ما يتلذذُ به ويحبُهُ، ثم يتعلقُ به، وأكثرُ ما يعرض الهوى لمن يتولى الحكمَ بين الناس؛ ولهذا أوصى الله داودَ عليه السلام بقوله: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ [ص: ٢].

والآية تشعرُ أن الهوى يتبعُ الباطل؛ لأنه جعله نظيرَ الحق.

واتباعُ الهوى يعمي عينَ القلب، فإن للقلب عيناً يبصرُ بها الحق، ويعرفُ مواقِعَهُ فمتى ما تبع هواه زاغت عينُ القلب إلى ما تنظرُ إليه عينُ الهوى فاتبعتْهُ.

يقوم علاج اتباع الهوى: على تعظيم منزلة الخوف من الله؛ ولهذا قَرن الله بينهما بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠].

وقد عقد ابن القيم بحثاً في علاج الهوى في كتابه (روضة المحبين).



القاعدة الحادية والعشرون

أمراضُ القلوب لها لذةٌ هي من إطعامِ الشيطان

أمراضُ القلوب هي اعتلالُها وخروجُها عن حدِ الصحةِ إلى المرض، وهذا يجعلُ القلب السليمَ ينفرُ منها، كما ينفرُ الإنسان الصحيحُ من مرضِ البدنِ وأسبابِهِ، إلا أن الشيطان يضع لتلك الأمراض لذةً تحبُها النفسُ وتَهواها، فلا يزالُ يطعِمُ القلبَ من السموم حتى تألفها النفس، ثم تطلبُها حتى تكونَ لها عادةً لا تنفكُّ عنها.

لذةُ المرضِ هي من فتنةِ القلبِ:

لذةُ أمراض القلوب هي من فتنةِ القلوب ليعلمَ الله - وهو العليم- صدقَ القلوب في محبتِها له سبحانه، وكثيراً ما تورثُ اللذةُ ذلةً، وهي من مقلوبات الكلمة (لذة-ذلة) وفي علم العربية ما يدلُ على التناسب بين الكلمةِ ومقلوباتِ أحرفِها كما قررَّه ابن جني في (الخصائص١/ ٥)، والذِلة



الحاصلة للقلوب بعد لذتها بأمراضِها تفوق اللذةَ العابرةَ، لكن القلوبَ المريضةَ لا تُدرك ذلك.

ولذةُ القلوب المريضةِ هي سببُ شقائها؛ لأن مرضَها باللذةِ التي يطلبُها فكان هلاكُها فيما يعتقدُ شفاءَها، وهذا أخطرُ ما يكونُ على القلوب، كالعاشقِ الذي يعتقدُ أن تواصلَه مع محبوبهِ هو لذتهُ وشفاؤهُ، وهو في الحقيقةِ هلاكُه وعذابُه، وكذلك لذةُ الرياء وما تجدهُ النفس من تقديرٍ وتعظيم، فلذتها هلاكها.



القاعدة الثانية والعشرون

الطمعُ بالشهرةِ يفسدُ أعمالَ القلوبِ

لا يفسدُ القلب شيءٌ كما يفسدُهُ الطمعُ بالشهرة والحرصُ عليها، وقد يصلُ ذلك إلى بذل الدينِ في سبيل الوصولِ للشهرة، وهي من أمراضِ العصر التي زُينت في أعين أهلِهِ، وأصبحت الشهرةُ قصداً مطلوباً حتى أصبح الإنسان يفرحُ بما ليسَ له، ومن عدل الله أن من سَمِعَ ثناءً عليه بما ليسَ له ولم ينكرهُ قلبُهُ فإنه سيسمعُ ذماً بما ليس فيهِ، فالأذن التي تفرحُ بماليسَ لها تعاقبُ بسماعِ ما ليسَ فيها، ومن عقوباتِ الذنوب ذهابُ الجاهِ وسقوطِهِ عند الناس، وهو من الجزاءِ بنقيض القصد، فإن أكرمَ الخلقِ عند الله أتقاهم.

ولا يُصلحُ القلبَ شيءٌ كما يصلِحُهُ التواضعُ والإخبات، فمن تواضعَ فقد سَلِم، ومن تلبيسِ الشيطان أن يجعلَ التواضعَ وخمولَ النفس والإخبات، ملازمٌ للكسلِ والتثاقل وعدم النفع والبذل، ومن تلبيسِهِ أن يجعلَ الشهرةَ قرينُ النشاطِ والعطاء، والنبي ﷺ إمامُ المتواضعين، وكان يستعيذُ بالله من العجزِ والكسلِ، وكان نشيطاً حتى في مشيهِ، فكأنما نَزَلَ من تَلٍ.

أثر الشهرة على أعمال القلوب:

والحرصُ على الشهرة هو نوعٌ من الحرص على الجاه الذي حذَّر منه النبي عليه السلام، ومفسدٌ للدين والقلب، وأعمالُ القلب شديدةُ الرِقَّةِ، فتفسدُ بأقل من الشهرة، فانظر إلى الإخلاصِ ما أصعَبَهُ على النفس حالَ رؤيةِ شخصٍ لكَ، وهو أصعبُ حينما يراك جمعٌ من الناس، فكيف إذا اشتهرَ بين الناس.

لَّما عَلِمَ الله سلامةَ قلوبِ علماء السلف عن طلبِ الشهرة، رزقَهُم الشهرةَ أثناء حياتِهم، فلما استحيت قلوبُهم من ربهم بعدَ ذلك وخافُوا ذلك، رزقَهم الله الشهرةَ بعد مماتِهم أكثرَ من شهرتِهم في حياتِهم، وهذا فضلُ الله، وعلى هذا فمَن عَلِمَ الله صدقَهُ أظهرَ ذكرَهُ كما قال: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) ﴾ [الصافات: ٧٨-٧٩].

تلخيصك للقاعدة:

القاعدة الثالثة والعشرون

إرادةُ الدنيا تُفسِدُ أعمالَ القلوبِ كُلِهَا

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

ثم قال عن أعمالِهم: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ [هود:١٦].

ومن ذلك أعمالُ القلوب، وكلمةُ ﴿يُرِيدُ﴾ فعلٌ مضارعٌ يفيدُ التجدد، فتتجدَدُ إرادةُ الدنيا في القلبِ على قدرِ ما تتجددُ أمورُ الحياة.

وإرادةُ الحياة الدنيا له صورٌ أعلاها: أن ينسى الله والدارَ الآخرة ويعملَ للدنيا الفانية، فلا يحلُ حلالاً ولا يحرمُ حراماً، وتشمل كذلكَ من تَعلَّقَ بالدنيا فأصبحت هي المحركُ لهُ في عبادتِهِ لله.

وضابطُ إرادةِ الدنيا: أن تكونَ الدنيا -بجميع فتَنِهَا- هي المحركُ له في أقوالِهِ وأفعالِهِ، وأعمالِهِ وتروكِهِ، وتمام

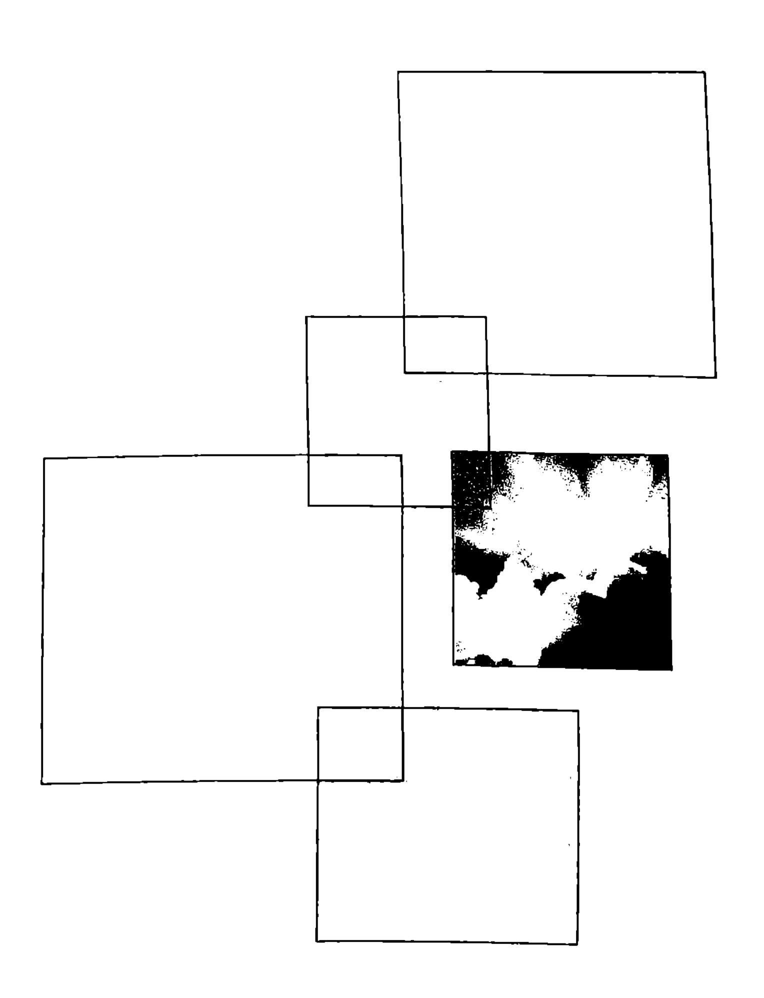
التجرد والإخلاص أن يكونَ المحركُ له ابتغاء وجه الله، وبين هاتين القمتين درجاتٌ مختلفة، والمؤمن يجاهد نفسهُ أن يكونَ أمرُهُ كلهُ لله وحده، وليس من الخسارة أن يتدرب المؤمنُ على الإخلاصِ طوالَ عمرِهِ، حتى تنقادَ له نفسُهُ، فإن وصلَ للإخلاصِ فقد وصلَ لله.

وإرادةُ الدنيا تفسدُ جميعَ أعمالِ القلب، ومن ذلك: إفسادُها لمحبةِ الله، فتكون الدنيا تُنافسُ الله في المحبةِ داخل القلب، فيَخرجُ من محبةِ الله من قلب المؤمنِ على قدرِ دخولِ إرادة الدنيا، وقُل كذلك في إرادةِ الثناءِ والمدح، وكذلك التوكلُ فمن أرادَ الدنيا توكَّلَ على غيرِ الله على قدرِ مرادِهِ، والرجاءُ كذلك، واليقين أيضاً، والخوف، والصدق؛ ولهذا عقدَ الشيخُ محمد بن عبد الوهاب باباً في كتاب التوحيد: (بابٌ من الشركِ إرادةُ الإنسان بعملهِ الدنيا)، ومقصودُ هذا الباب من التوحيدِ تجريدُ إرادةُ القلب لله وحده، وهذا أحدُ أسرارِ نقصانِ المجاهدِ ثلثي أجرهِ إذا غَنِمَ [رواه مسلم ١٩٠٦].

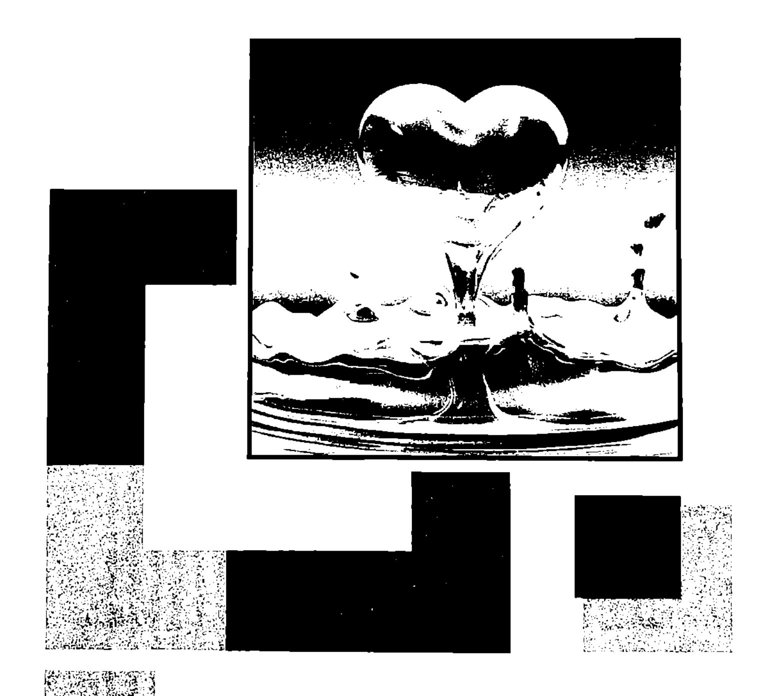
والعلاج لذلك أن يتحققَ الإخلاص في قلبِ المؤمن

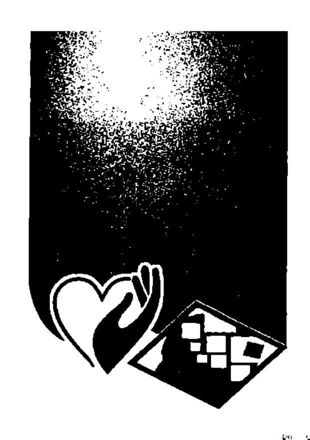
بأن يبتغي وجهَ الله وحدَهُ، وأن يجعلَ الدنيا مزاداً للتزود للآخرة، وأن يُخرج من قلبهِ التعلق الدنيوي وحبَها، بأن تكونَ الدنيا في يديهِ وليست في قلبهِ، وأن يعملَ في الدنيا وفقَ مُرادِ إلهِهِ وسيدِهِ ولو خالفَ هواه.

تلخيصك للقاعدة:



كلماتٌ جامعة في علم القلوب





قواعد في
أعمال القلوب

هذه كلماتٌ في أعمال القلوب، بعضها لأهلِ العلمِ المتخصصين في السلوك، وبعضها من التأمل في كلامهم أحببتُ تدوينها، ومنها:

١- إبليسُ يهوى القلوبَ الخَرِبة.

٢- إذا فَهِمت القلوبُ انتفعت الأُذُنُ بما تسمع، والعينُ بما تَرى، واللسانُ بما يَتكلم.

٣- بطولِ الأملِ تقسو القلوب.

٤- جُبِلَت القلوبُ على حُبِّ من أحسنَ إليها؛ ولا أكملَ إحساناً إليها من الله، والقلوبُ تنتفعُ هي بحبِهِ.

٥- حسنُ الظنِ بالله راحةٌ للقلوب.

٦- القلوبُ أوعيةٌ؛ فَأَحسِنْ ما يوضعُ فيها.

٧- القلوبُ تصدأُ كما يَصدأُ الحديد؛ فجلاؤُها بالذكرِ.

٨- اتفقت كلمةُ السلفِ على أن أكلَ الحلالِ يلينُ القلبَ.

٩- القلوبُ المريضةُ تحتاجُ مِن غيرها رِفقاً، كما يحتاجه مريضُ البدن، حتى يتشافى.



١٠- يحصلُ بالاعتمادِ على الله من الشفاءِ ما لا يحصلُ بغيرِهِ من الأسباب.

١١- إذا تقاربت القلوبُ لم يَضُرّ تباعدُ الأجسام.

١٢- اختلافُ أحوالِ القلوبِ أشدُّ من اختلافِ أحوالِ الأبدان، لكنَّ الأعيُنَ لا تُبصر.

١٣- تَرجعُ كلُ أمراضِ القلبِ إلى حُبِّ الدنيا، ونسيانِ الآخِرة.

١٤- أصعبُ ما على القلوبِ الإخلاصُ؛ لأنه لا حظَّ لها فيه، فإذا ذاقتْهُ أَنِسَتْ بِهِ.

١٥- مَن سَرَّهُ أن يَسلم من أمراضِ القلوب؛ فليكثر الصمتَ، وليشتَغِل بالذكرِ.

١٦- ترجعُ كثيرٌ من أعمالِ القلوبِ إلى اليأسِ من المخلوقين، فمن يئس من المخلوقين استقام قلبُهُ.

١٧- قيامُ القلب بين يدي الله هو صلاتُهُ، كما أن قيامَهُ في محرابِهِ هو صلاةُ جوارحِهِ.

١٨- القلبُ إذا تلذَّذَ بنصوصِ الوحي نقصَ تلذذُهُ بكلامِ الناس.

١٩- كلما كان العبدُ أكمل توحيداً؛ كانت أعمالُ القلوبِ أكمل وأقوى.

٢٠- كلما كان العبدُ بالله أعرف كان له أشدُّ خوفاً؛ لأنه يريدُ حفظَ تلك المنزلةِ التي وصل إليها.

٢١- كلما كان العبدُ أقربَ لله؛ كان أكثرَ أُنسَاً به.

٢٢- كلما كان العبدُ أتمَّ حياةً كانت إرادتُهُ أقوى، ومحبتُهُ أشدُّ.

٢٣- كلما كان القلبُ حياً كانت حربُ الشيطانِ له أقوى وأشدُّ.

٢٤- كلما كان القلبُ أظلمَ كان للشيطانِ أطوع.

٢٥- كلما كان القلبُ لله أقرب كان فُرقانُهُ بين الحق والباطل أتمَّ.

٢٦- كلما كان الفعلُ أنفعَ للقلب كان اعتراضُ الشيطانِ له أشدّ؛ لعلمِهِ بأن أثرُهُ على القلب كبيراً.

٢٧- كلما كانت المحبةُ أقوى كانت قوةُ البُغضِ للمنافي أشدّ، فمن كانت محبتُهُ مثلاً لله أتمَّ كان بغضُهُ لما ينافي ذلك ويقطعُهُ عن الله أشدَّ.



٢٨- كلما كان الفعلُ أحبَّ للربِ كان أنفعَ للقلب، فلا بدَّ أن يعرفَ المؤمنُ محبوباتِ الله.

٢٩- كلما كان القلبُ أتمَّ حياةً؛ تألَّمَ للذنوب حتى الصغائرَ منها، وتألَّمَ لفواتِ الفاضل.

٣٠- من عَرَفَ قلبُهُ الله لم يسعْهُ إلَّا أن يُحبَهُ.

٣١- القلب اعارف بالله لا يسعهُ إلَّا أن يعتمدَ عليه ويتوكَّل.

٣٢- كلما كان في القلبِ عبوديةٌ لغير الله كان عَبَداً لذلك الغير.

٣٣- على قَدرِ قُرب الملائكةِ من القلبِ تبتعدُ الشياطين.

٣٤- يتسلطُ الشيطانُ على القلبِ المريض حتى يلتقِمُهُ التقَاماً.

٣٥- نورُ القلب يحرقُ الشبهات والشهوات.

٣٦- للقلبِ نورٌ يبصرُ به الحق والباطل.

٣٧- من أقبلَ إلى الله بقلبِهِ شبراً أقبلَ الله إليه ذراعاً.

٣٨- حياةُ القلبِ بالقرآن والسنة.

٣٩- القلوبُ مفطورةٌ على محبة ربِها وإلهها؛ ولهذا لن تجدَ صعوبةً في الوصول إليه.

٤٠- كل اسم وصفةٍ من أسماء الله وصفاته تَسدُ فقراً في القلب.

٤١- إخباتُ القلب يجمع مقام: المحبة والذل والخضوع.

٤٢- الإنابةُ جامعةٌ لمقام: المحبة والخشية.

٤٣- الأنسُ بالله جامعٌ لمقام: الحب مع القرب.

٤٤- التوبةُ جامعةٌ لمقام: المحاسبة والخوف.

٤٥- التوكلُ جامعة لمقام: التفويض والاستعانة والرضا.

٤٦- الخشيةُ جامعةٌ لمقام: المعرفة والعبودية.

٤٧- الخوفُ جامع لمقام: الرجاء والإرادة.

٤٨- الرجاءُ جامعٌ لمقام: الخوفِ والإرادة.

٤٩- الرضا جامعٌ لمقام: الصبر والمحبة.

٥٠- الرغبةُ تلتئم من: الرجاءِ والخوف، والرجاءُ أغلب.

٥١- الرهبةُ تلتئم من: الرجاء والخوف، والخوفُ أغلب.

٥٢- الزهدُ جامع لمقام: الرغبة والرهبة.

٥٣- الصدقُ جامعٌ لمقام: الإخلاص والعزم.

٥٤- الهيبةُ جامعةٌ لمقام: المحبة والإجلال والتعظيم.

٥٥- الطمأنينةُ جامعةٌ لمقام: للإنابة والتوكل.

٥٦- حياءُ القلب جامعٌ لمقام: المعرفة والمراقبة.

٥٧- أركانُ عبودية القلب تقومُ على: الإخلاصِ والصدقِ والمتابعة.

٥٨- علاجُ القلوب أصعبُ من علاج البدن؛ لكنَّ شفاءها أتمَّ وأكمل من شفاء البدن.

٥٩- حياةُ القلب بدوام الذكر.

٦٠- لذةُ القلب في عبادته هي من شكر الله؛ فالله شكور.

٦١- معرفةُ القلب لله تثمرُ محبتهُ وخوفَهُ ورجاءه ولابُدّ.

٦٢- الصبرُ والتوبةُ مقامان لا ينفكُ عنهما قلب المؤمن.

٦٣ـ إذا سافرَ القلب للآخرة زَهَدَ في الدنيا كلها.

٦٤- من حيا قلبُهُ استنار عقلُهُ.

٦٥- قد يَشتَبِهُ التوكلَ بالتواكِل، والخشوعَ بالتخَشُّعِ، والزهدَ بالتَزَهُد؛ فلابُدّ من الفقه في أحوالِ القلوب.

٦٦- القلبُ محتاجٌ للهداية في جميع أحواله في الدنيا والآخرة.

٦٧- من خافَ شيئاً غير الله سلَّطه الله عليه.

٦٨- الوساوسُ تعيقُ القلبَ عن سرعة الوصول إلى الله.

٦٩- أوسعُ الأبواب التي يدخلُ منها الشيطان على القلب: بابُ الغفلة.

٧٠- العلمُ بالله حارسُ القلبِ من الشياطين.

٧١- كلما ازداد القلبُ منزلةً في الإيمان اشتدت حاجتُهُ للعلمِ بالله.

٧٢- القلبُ إذا سمعَ الحديث نضَّر الله وجهَهُ فأضاء بالبصيرة.



٧٣- القلبُ ذوَّاق؛ فإذا ذاقَ طعم العلم بالله لم يصبر عنهُ.

٧٤ـ ليس للقلبِ أنفعُ من قصرِ الأمل.

٧٥- التوكلُ يجمعُ أصلين: علمُ القلب وعملُهُ.

٧٦- كل اسمٍ من أسماءِ الله يستدعي محبة قلبية له خاصةً به.

٧٧- قلبُ المحب دائماً في سفرٍ نحو محبوبِهِ؛ فكذلك القلوبُ المتعلقة بالله.

٧٨- كلما كانت محبةُ القلبِ لله أقوى؛ كانت لذتُهُ أتمَّ.

٧٩- كلما قويَ الحبُ ازداد الفكرُ في حالِ المحبوب.

٨٠- آفاتُ القلب كالعقاربِ والحيات في الطريق؛ فلابُدَّ من قتلها.





قواعد في أعمال القلوب

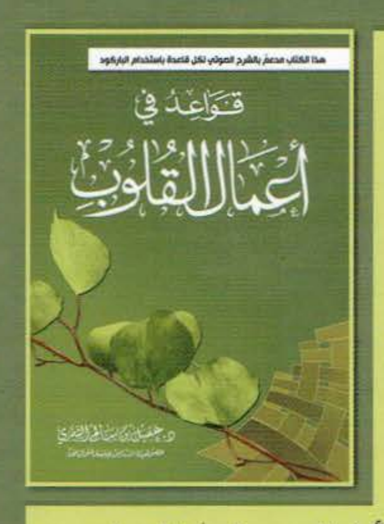


الفهرس









إن أعظم الفقه فقه القلوب وأحوالها، ولم يكن الصحابة يقدمون على فقه القلوب شيئا، وقد جمع كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام معاقد هذا الفقه وأصوله وفروعه، ومن أراد الوصول لله فليصلح قلبه، فالله ينظر للقلوب، فإن وجده صالحاً وضع نوره فيه، وإن كان القلب ميتاً أعرض الله عنه وهنا باض الشيطان فيه وفرخ، وإن كان القلب مريضا فينشط مرة ويضعف أخرى، والعبرة بالخواتيم..

وتجد في الكتاب بعض قواعد هذا الباب، ودعمت الكتاب بشرح صوتي عن طريق الباركود.. وصلى الله على محمد..



المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة
daralhadarah.net



